حكاية الخميس

عنوان الكتاب : حكايةَ الخميس
الموضوع : روايةَ للفتيان
التأليف : عبدالله جدعان
مراجعة لغوية : عمرو وسالم سواح
الإخراج الفني : عمرو سالم سواح
تصميم الغلاف : داليا رشوان #غرّد_للعالم
لوحة الغلاف : منى العمري
الطبعة الأولى : 2018
رقم الإيداع : 2018/ 20050
الترقيم الدوليّ : 978-977-6639-37 -9
الناشر : دار تويتة للنشر والتوزيع

tweetpublishing2017@gmail.com

www.facebook.com/Tweetforpublish

٧ش محمد أبوالعطا- محطة العريش-فيصل- الجيزة

رئيس مجلس الإدارة: م/ أحمد عبد العزيز

المدير العام: أ/ رشا العمري

٠١٠١٧٧٩٩٧٩٩/٠١٢٢٥٧٦٢٠٦٦

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

رواية للفتيان

حكاية الخميس

عبدالله جدعان

تويتة
Tweeta
للنشر و التوزيع

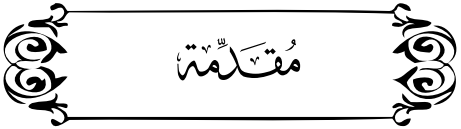

هذه الرواية موجهة للفتيان، تضم في ثناياها مجموعة من قصص أنبياء الله تعالى ورسله في القرون الأولى التي وردت في القرآن الكريم، كما حاولت من خلال المزاوجة مع ما يحدث في حياتنا المعاصرة التي نعيشها الآن بين الأحفاد والجدة التي تحكي لهم تلك الحكايات في أوقاتٍ ومواقف تستند فيها الجدة لتلك المزاوجة، أي الاستناد لتلك القصص التي وردت في القرآن الكريم. فهي حتمًا ستبقى محفوظة ومحفورة في قلوبنا وعقولنا نحن الكبار! فهي مثل الكنوز للأطفال والفتيان حتى ممن هم في سن الشيخوخة. وحتمًا من يقرؤها لن يمل من قراءتها حتى لو كررها أكثر من مرة. ومن الله التوفيق.

المؤلف

(تبا للظلام)

عندما حل المساء لف كل شيء بالسواد، جلست وسط أفراد أسرتي المتكونة من أبي وأمي وشقيقي أزهر وأيمن، أما أنا فاسمي مريم وغالبًا ما تناديني جدتي الحنون (فتحية): مريومة، تعودت في كل يوم وقبل أن أنام أن أنتهي من إنجاز واجباتي المدرسية، كانت في ذلك المساء، السماء تزداد غيوما وأمطارا وبروقا، المطر يهطل بغزارة، وفجاة انطفأ التيار الكهربائي عن المنزل فتحول المكان إلى ظلام دامس. استشطت غضبا وقلت في نفسي:

- (آه! ما عساي أن أفعل؟!)

استدار أبي وسألني قائلا:

- هل أتممت واجباتك المدرسية يا مريومة؟

أجبته بكلمة لا. ثم غير أبي طريقته في الحديث وقال لي بحنان:

- حسنا، لا بأس، ستجلب لنا أمك مصباح الشحن الكهربائي وعلى إضاءته تستطيعين إكمال واجباتك المدرسية.

هززت رأسي غير مقتنعة وحزنت لأجل ذلك كثيرًا. ولاحظ الجميع انزعاجي لانقطاع التيار الكهربائي فقالت لي جدتي الحنون (فتحية):

- اسمعي يا حفيدتي الغالية مريومة، لا تنزعجي. عندما كنت صغيرة وفي عمرك تحديدًا كنت شبه محرومة من قراءة الكتب المدرسية في الليل؛ لأن في ذاك الزمان كانت معظم البيوت محرومة من الكهرباء وبذلك يضطر التلاميذ أن يسهروا على ضوء الشموع أو مصباح النفط المسمى (الفانوس) أو (اللمبة)، كما كان التلميذ الذي ينحدر من أسرة فقيرة لا يستطيع أهله أن يشتروا له مثل هذه الكتب أو القرطاسية، بل يدرسون في كتب رفاقهم

التلاميذ.

كم شعرت بالخجل والألم في الوقت ذاته، وأنا أصغي لكلام جدتي. لكن جدتي استمرت في الكلام وعلى وجهها ابتسامة عذبة قائلة:

- وكانت الدفاتر والأقلام غالية الثمن يا أحفادي الحلوين، وإن معظم الأسر الفقيرة كانت تضطر لأنْ تدع أطفالها محرومين من التعلم. وأنتم اليوم يا أحفادي متوافر لديكم كل مستلزمات التعليم من كتب ودفاتر بأحلى وأزهى ألوان الطباعة.

أجبتها بابتسامة واثقة كل الثقة:

- **تبا للظلام**، فشكرًا لك يا جدتي الغالية على هذا الكلام، فلولا انقطاع التيار الكهربائي لما سمعت منك هذا الكلام عن التعليم قبل عشرات السنين. فأي عيشة أهنأ من عيشتنا وأي حياة أسعد من حياتنا هذه التي نعيشها الآن بفضل الله ورعاية الأبوين وحنانك يا جدتي. وجدت نفسي أشكر الله كثيرًا على ما نحن فيه من نعيم وحنان الجدة والأبوين في توفير مستلزمات التعليم كافة وغيرها من لعب وأدوات للتسلية، لكن أخي أزهر قال متفاخرًا يغيظني أمام الجميع:

- أما أنا فقد أتممت واجباتي منذ عصر اليوم. ماذا كنت تفعلين في وقت الظهر والعصر؟

قلت له وقد آلمني رد أزهر علي:

- أنت كان لديك الوقت الكافي لإتمام واجباتك البيتية لأن دوامك في المدرسة منذ الصباح، أما أنا فدوامي بالمدرسة يبدأ في وقت الظهر وينتهي عصرا، وعند عودتي للبيت قمت بمساعدة أمي في أعمال المنزل، أما أنت

فلا شيء عندك أهم من اللهو واللعب بالكرة مع أصدقائك.

فرد عليها أزهر متفاخرا:

- إنني لا أعبأ بما تقولين يا مريم، فليس لديك ما تفخرين به، درجاتي الامتحانية فوق المتوسط في كل الدروس، وإنني أحب كرة القدم كثيرا، وأكاد أقضي الوقت كله في لعبها مع الآخرين ولا أفوت فرصة للعب أبدا، وإن كان لدي بعض الواجبات والدروس البيتية، فكل ما أفعله عند عودتي من المدرسة أقوم بإتمامها فورا.

بعد أن أحست جدتي أنني قد انزعجت كثيرا من كلام أخي أزهر، على الفور قالت له:

- يا عزيزي أزهر، لا بأس باللعب بالكرة لأنها تنشط الجسم، لكن هناك ما هو أهم لتنشيط الحواس، إلا وهي القراءة! فالقراءة أطيب وألذ زاد للإنسان، ولكن لعبة الكرة عليك أن تمارسها في أوقات الفراغ والعطل أليس كذلك؟

أطرق خجلا واعتذر لي ولجدتي هازا برأسه ولم ينبس بكلمةٍ واحدة. ومن شدة انفعالي، هون علي أبي ثم أمي.

كنا نحن الإخوة الثلاثة مختلفين في الطباع والأمزجة، فتارة نضحك ونتمازح وتارة أخرى يعلو صياحنا وأصوات شجارنا إلى خارج المنزل، لكن كلام أزهر لي جعلني في أشد حالات الانزعاج، وكلام جدتي هو الذي جعلني أتناسى ذلك الانزعاج وذلك حينما قالت لي:

- لا تنزعجي يا عزيزتي الغالية مريومة، أمنيتي أن يكون النجاح والتفوق حليفا لكم طوال الحياة.

قال أيمن أخي الأصغر سنا بانزعاج:

- وأنا يا جدتي؟

ابتسمت جدتي وربتت على كتفه وقالت:

- وأنت كذلك يا حياتي ونور عيني، وما دام التيار الكهربائي لم يعد، فسأحكي لكم حكاية، ولكن على شرط.

أنا وشقيقاي قلنا بصوت واحد:

- وما هو يا جدتنا الغالية؟

قالت:

- "أنتم ما زلتم صغارًا، وكما تقول الحكمة: "التعلم في الصغر كالنقش على الحجر"، ما أريده منكم هو أن تكون المحبة في تواد وتراحم في قلوبكم أنتم الثلاثة حتى يطيل الله أعماركم. وهناك الكثير من القصص والروايات التي تتحدث عن الوفاء والإيثار بين الإخوة، وهناك العكس! وربما قصة نبينا يوسف عليه السلام كانت خير قصة عن حقد الإخوان على أخيهم الصغير بسبب حُب أبيهم له".

ساد صمت فيما بيننا وأخذ ينظر كل منا للآخر. فقلت برجاء لجدتي:

- عفوا يا جدتي لن يتكرر هذا إن شاء الله.

ونهض أخي أزهر وقدم اعتذاره لي ولجدتي ثم قبلها من وجنتيها، وقال لها برجاء آخر:

- أعدك يا جدتي بأنه لن يتكرر هذا الخطأ مني مستقبلا.

في هذا السكون الموحش احكي لنا حكاية نبينا يوسف عليه السلام مع أشقائه.

بعد أن هدأت السماء وتوقف هطول المطر، جدتي صمتت للحظات وارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة، وقالت بهدوء وسكينة وصار كلامها يسبق القلب قبل الأذنين:

ذات صباح مشرق من نهار جميل أقبل يوسف يمشي هادئًا مطمئنا مثل ملاك، وحيّاه أبوه وسأله:

- ما الذي جاء بولدي في هذه الساعة المبكرة؟!

ربما استعاد يوسف في ذهنه صورة ذلك الحلم الغريب الهائل الذي رآه ليلة أمس، وتذكر مشهد تلك الكواكب الأحد عشر تصطف أمامه خاشعة، ثم رآها تسجد له، ورأى الشمس والقمر معها أيضًا! ولا يعلم إلا الله ما جاش في نفس يعقوب من أمل وفرح وغبطة وهو يسمع من يوسف هذه الرؤيا العجيبة، وهو بعد غلام لا يزيد عمره على ثلاثة عشر عاما! لقد علم يعقوب أن ابنه يوسف هذا سيكون له شأن عظيم، فخاف على ابنه من إخوته الذين يعلم يعقوب ما يعلم من حسدهم له وغيرتهم منه، فأمره بألا يخبرهم برؤياه، وبين له الشر الذي في نفوس إخوته، ثم فسر يعقوب الرؤيا لولده، فبين له أن الله سوف يفهمه من معاني الكلام وتعبير المنام ما لا يفهمه غيره، وهي أن يوسف سيكون نبيا يوحى إليه، كما أوحى الله إلى أجداده من قبله.

تعلقت الأعين بالجدة، وسأل أخي أيمن قائلا:

- وماذا فعل إخوة يوسف؟ هل عرفوا ذلك الحلم أم لا؟

ردت جدتي:

- "انتظر قليلًا يا أيمن، سأوضح لكم الحكاية تباعًا. كلما ازدادت محبة يعقوب ليوسف ازدادت كراهية إخوته له وأعلنوا لومهم لأبيهم على حبه البالغ ليوسف، ولم يكتفوا بنفث غيظهم بل ازدادوا حقدًا على أخيهم، وعزموا على أن يحولوا كرههم ليوسف إلى أذى يصيبه فقرروا الخلاص من يوسف بكل وسيلة، فقال أحدهم بأن يرموا يوسف في أرض بعيدة ليهلك فيها أو يغيب فلا يرجع إلى أبيه! وهنا تذكروا البئر أو الجُب التي يعرفونها جيدا، والتي تقع على بعد ثلاثة فراسخ من مقام يعقوب، حيث لا يوجد فيها ماء يغرق، وليست مهجورة بحيث تكون مأوى العناكب والحيات والعقارب، ويعرفون أنها ليست معزولة عن طريق المارة، فسوف تمر قافلة سيارة، وتأخذ يوسف معها عبدًا رقيقًا لتبيعه في أرض بعيدة.

وكان إخوة يوسف يعرفون أن أباهم لا يطيق فراق يوسف ساعة واحدة. وبدأوا يحركون خيوط حيلتهم، فراحوا يتسابقون بالركض، ويتبارون برماية السهام، وحين رأى يوسف هذا منهم تمنى عليهم لو يكون معهم، فوعدوه بذلك. وكانت هذه خدعة منهم ليوسف. ولكن كيف يستطيعون إقناع يعقوب بذلك؟".

لم أستطع الانتظار فقلت دون سابق إنذار:

- وكيف تم إقناع الإخوة أباهم النبي يعقوب عليه السلام؟

- "بالحيلة يا عزيزتي مريومة.

أقبل الإخوة العشرة على أبيهم يعقوب، وفاجأوه بسؤال غريب فيه عتاب واستنكار ودهاء: لماذا لا ترسل يوسف مع إخوته إلى المراعي والأراضي

الخالية التي يرتادونها؟، فأطمعوا أباهم بأن يوسف سوف ترتاح نفسه في اللعب معهم، فيأكل ويلتذ ويتنعم في صحبتهم، وسوف يحفظونه كل الحفظ، ومع هذا الإغراء الجميل وكل هذا الضمان لحفظ يوسف، اعتذر الأب من دعوة أبنائه لأخيهم يوسف قائلا:

- {أخاف أن يأكله الذئب}.

ردوا على أبيهم متباهين بأنهم كثيرون أقوياء، فلو غلبهم الذئب وأخذ يوسف فإنهم إذن لخاسرون لا يصلحون لشيء، وهكذا استسلم الوالد الحريص لهذا التوكيد".

شهقنا نحن الثلاثة من شدة المفاجأة التي نسمعها وقلنا:

- وهل وافق الأب أن يذهب يوسف مع أشقائه للصيد؟

- "نعم، وفي الصباح خرج يوسف مع إخوانه، وصحبهم يعقوب بعض الطريق وقلبه غير مطمئن على ذهاب حبيبه يوسف مع إخوانه. فقال له أبناؤه:

- ارجع يا نبي الله، ولا تخف على يوسف، فنحن له حافظون من كل شر.

ثم أقبل يعقوب على يوسف وضمه إلى صدره وقبله وقال له:

- أستودعك الله رب العالمين.

وما إن غاب يعقوب عن أنظار أولاده حتى أخذوا يهينون يوسف ويضربونه، بحقد وحنق شديدين! وكلما استنجد يوسف بواحد منهم ضربه، حتى كادوا يقتلونه، فراح يوسف يصرخ مستغيثا ويصيح:

- يا أبتاه! يا أبتاه!

لكن أخاهم يهوذا غضب من أفعالهم وقال لهم:

- نحن لم نتفق على هذا! وكأنه بهذا القول ذكرهم بالبئر التي كانوا قد اقتربوا منها الآن، فخلعوا قميص يوسف، ثم ألقوه عاريًا في الجُب!".

جميعنا وبصوت واحد نتساءل:

- الجب؟!

ردت الجدة قائلة:

- نعم، (البئر)، حيث غاب عن الأنظار في ظلام قعْر الجب! لكن الله كان مع يوسف، فطمأنه وأوحى إليه أنه لا بد له من فرج ومخرج من الشدة التي هو فيها.

غابت الشمس ولم يعد يوسف، ويعقوب ينتظر بكل صبر، ثم حل العشاء، وفجأة اندلعت أصوات بكاء، واقتربت الأصوات وهي مختلطة بظلام الليل من يعقوب، تُرى لماذا هذا البكاء المرير؟، نظر إليهم يعقوب متفحصًا، فإذا بيوسف ليس معهم، وقبل أن يسألهم أبوهم سبقوه بالقول: تركنا يوسف ليحرس ثيابنا، ثم أضافوا وسط بكائهم الكاذب: ثم أكله الذئب، ثم فجأة ألقوا إلى أبيهم قميصًا ممزقًا ملطخًا بالدماء، وكانوا قد قتلوا سخلةً وأكلوا لحمها ولطخوا قميص يوسف بدمها.

بكى يعقوب النبي الكريم بكاء مريرا، وحزن حزنا شديدا. أدرك أن أولاده قتلوا أخاهم يوسف، وما هم إلا كذابون مزورون!

وجد يوسف نفسه ملقى في البئر وحيدًا، حيث الظلام والوحشة والخوف، ولم يجد أمامه إلا أن يستغيث بإخوته الغادرين أنفسهم، فأخذ ينادي من أعماق الجب بحسرة وشفقة ورجاء، فصاح:

- يا إخوتي! إذا اجتمعتم فآنس بعضكم بعضًا فاذكروا وحشتي! وإذا أكلتم فاذكروا جوعي، وإذا شربتم فاذكروا ظمئي! وإذا رأيتم غريبًا فاذكروا وحشتي!

وفجأة، وكأن البئر أشرقت بالنور السماوي، سمع صوتًا يناديه ويحدثه، صوت ما سمع مثله من قبل، فيه لطف وحنان وأمان، وخاطبه الصوت بأعذب ما يكون من الحديث:

- يا يوسف كف عن هذا.

وتلفت فإذا الجب مشرق ومضيء، وإذا بالطمأنينة تملؤ نفسه، إنه جبريل عليه السلام يخاطبه بحديث هو أحوج ما يكون إليه، فأصغى يوسف ينتظر المزيد، فسمع جبريل يقول:

- اشتغل بالدعاء إلى الله والتضرع إليه.

لقد أفهمه جبريل أنه يجب أن يلجأ عند المصيبة إلى الله أولا، ولا يسأل سواه، فالله وحده هو القادر على كشف الضر عنه. ومكث يوسف ينتظر رحمة ربه، وقد اطمأن بعد الدعاء قلبه، وعند الصباح من ذلك اليوم ارتفعت فجأة أصوات مختلطة وجلبة.

أشواق ضجت في النفوس فتحولت إلى صياح وأخذت أردد تلك الكلمات:

- تبارك الله منفردا في سلطانه، مستبدا بعظمته وجبروته.

ابتهجت جدتي وهي تسمع مني هذا الكلمات وأنا أتبارك لله خاشعًا، ثم واصلت حديثها قائلة:

- ثم كان هناك وقع أقدام تقترب من الجب. وبعد دقائق قليلة كان

هناك دلو يتدلى من أعلى الجب بحبل. وهبط الدلو نحو يوسف الجالس وحده في قعر الجب. لقد حلت ساعة الفرج واستجاب الله لدعاء يوسف. وكانت هذه الأصوات لقوم مسافرين من مدين نحو مصر وحطوا رحالهم قرب الجب، فأدلى أحدهم دلوه في الجب ليستقي منه الماء. رفع الوارد دلوه من الجب بقوة، وحين رأى يوسف متعلقا به، فوجئ بما رأى أول الأمر لكنه سرعان ما فرح لرؤية هذا الغلام الجميل مشرق الوجه، فنادى أصحابه والفرح يملؤ قلبه وصاح:

- يا بشرى، هذا غلام.

ثم اتفقوا على أن يخفوا أمر هذا الغلام عن بقية أفراد القافلة خوفًا أن يشاركوهم فيه إذا علموا الخبر. وكل هذا الذي حدث ليوسف إنما هو بتقدير الله سبحانه، وهو يعلم بإنقاذ يوسف من قبل الوارد وإخفائه ليبيعه عبدًا في مصر.

توجه يوسف مع القافلة المتجهة إلى مصر. وكان أصحاب القافلة قوم لا يؤمنون بالله ولا يؤمنون ببعث ولا نشور ولا يرجون من الله ثوابا أو يخافون عقابًا، بل كانوا يعبدون أصناما صنعوها بأيديهم. نظر إليهم يوسف فرآهم يقبلون على عبادة أصنامهم ويتوسلون إليها ويعظمونها وهم أذلاء صاغرون. غضب يوسف منهم كل الغضب، وأنكر عليهم عبادة الأصنام وذكرهم بعبادة الله رب السموات والأرض، ثم عاب أصنامهم وحقر شأنها. ضجر أصحاب القافلة من يوسف وكرهوا صحبته، فقرروا أن يتخلصوا منه ويبيعوه حال وصولهم إلى مصر. مرت أيام حتى وصلت القافلة إلى مصر. وفي الحال أسرع الذين أخرجوا يوسف من الجب إلى

سوق العبيد، وباعوه بثمن قليل ليتخلصوا منه. وقد اشتراه منهم رجل ثم باعه في سوق الرقيق والعبيد. ثم اشتراه (قو طيفار) عزيز مصر أو رئيس وزرائها. وفي بيت عزيز عاش يوسف حياة جديدة. وكان (قوطيفار) رجلا هادئًا وديعًا كريما فأصبح يوسف فتاه المفضل وجعله رئيسًا لخدمه في قصره الواسع الجميل. وكان يوسف في بيت العزيز مثالا للجد والأمانة وله كلمة مسموعة من الجميع.

بينما كنا نصغي للجدة غير مبالين بمن حولنا أضاءت الغرفة أنوارها مجددا، فسكتت الجدة بعد أن غلبها النعاس، وقالت لنا:

- الآن هيا كلٌّ إلى فراشه ليستيقظ مثل ديك نشيط.

نهضنا نحن الثلاثة، لكن أخي الأصغر أيمن أخذ يقلد صوت الديك وهو يتجه صوب باب غرفة النوم، بينما أنا همست في أذن جدتي:

- لا تنسي في الغد أيضا ستسمعيننا حكاية جديدة؟

أجابتني بصوتٍ خفيض:

- إن شاء الله، لكن المهم أن تنتبهوا لدروسكم جيدا وتواظبوا على إتمام واجباتكم المدرسية.

قبلتها بكل وقوة، ثم توجهت صوب باب غرفتي وكلي أمل أنا وإخوتي أن نسمع منها حكايات أخرى. عذرًا، نسيت أن أخبركم أن جدتي امرأة ستينية العمر، ترفل في الصحة والقوة، كانت معلمة للتربية الإسلامية، أما الآن فقد أحيلت إلى التقاعد، وهي تحفظ الكثير من القصص والحكايات عن الأنبياء والرسل.

(حكاية الخميس)

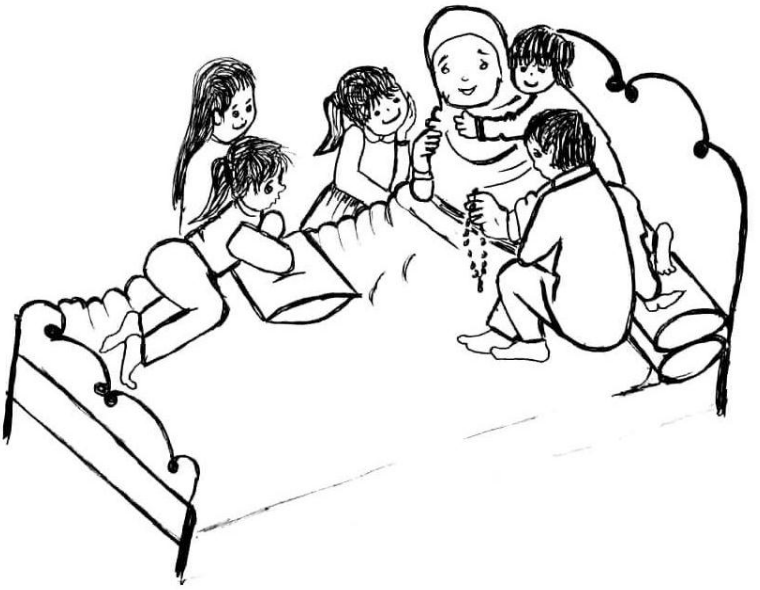

اعتاد أبي عصر كل خميس أن يذهب بجدتي ((فتحية)) إلى منزل عمي منير الذي يصغر أبي بعدة سنوات، والذي يسكن في الجانب الآخر من المدينة، فكان أبناء عمي (ذكرى وذاكر وإيمان) ينتظرون قدومها في يوم الخميس على أحر من الجمر لتحكي لهم كما تحكي لنا أحلى الحكايات أو الخرافات أو النوادر الطريفة، كما تشيع في الجو مرحا مفعما بالود واللطف والفرح ونحن نغمرها بذلك الحنان الذي علمتنا إياه. لذلك طلبنا منها أن نذهب برفقتها جميعنا إلى بيت عمي منير، رفض أبي الفكرة في أول الأمر، وعندما تهيأ أبي ليأخذ جدتي إلى بيت عمي بسيارته، كانت أعيننا باتجاه الجدة التي حسمت الموقف لصالحنا حينما قالت:

- كفى يا بشير، إذا لم يذهب الأولاد معي فأنا سأذهب لوحدي ولا حاجة أن تقلني بسيارتك.

هز أبي برأسه موافقا، وفي الحال كل واحد منا استبدل ملابسه ووقفنا قرب سيارة أبي المركونة في مرآب البيت، وبعدها انطلق بنا إلى بيت عمي منير. وما أن وصلنا بيت عمي، جلسنا نتبادل التحيات، وبعد أن تناولنا طعام العشاء أخذنا نتبادل الكلام فيما بيننا، فقال أخي أزهر متباهيا:

-إن جدتي البارحة قصت لنا حكاية من حكايات القرآن الكريم! الله!! ما أجملها! لا ما زالت عالقة في ذهني، لأنني لم أسمعها من أحد من قبل!

كان كلام أخي أزهر وهو شديد الإعجاب بما قصته لنا جدتي قد أثار الرغبة والاشتياق في نفوس أولاد عمي أن يطلبوا سماع حكاية جديدة من الجدة (فتحية). ثم قررنا جميعا حينما تدخل جدتي إلى الغرفة المخصصة

لها والتي تنام فيها أن نفاجئها وندخل عليها هبة رجل واحد نتوسلها ونقبلها من وجنتيها وأن نطلب منها أن تحكي لنا حكاية جديدة. وفعلًا تم ما اتفقنا عليه نحن الستة (أنا وأخي أزهر وأيمن، وإيمان وذكرى وذاكر أولاد عمي منير، كلنا أحفاد الجدة). وما أن حان وقت النوم، دخلنا جميعا على الغرفة التي تنام فيها جدتي، ثم جلسنا نلتف حولها ونتطلع إليها بفارغ الصبر ثم صحنا جميعنا باعلى أصواتنا فرحين:

- (هيا يا كل الحب يا نبض القلب احكي لنا يا جدتنا حكاية الخميس).

ابتسمت جدتي ثم صمتت للحظات وهي تقول مع نفسها:

- (اليوم لن أحكي لهم حكاية، بل سأسألهم ألغازا تحثهم على التفكير والتخمين. وإن استطاعوا معرفة الإجابة عندها سأحكي لهم قصة من قصص القرآن الكريم).

قالت لنا:

- اسمعوني يا أحفادي، اليوم سوف أحدثكم عن شيء يختلف عن الأقاصيص أو الخرافات التي تعودتم كل خميس على سماعها مني.

شعرنا بالإحباط قليلا حتى بدأ أحدنا ينظر إلى الآخر بنظرة تعجب.

ذكرى قالت لها: وما هو هذا الشيء يا جدتي؟

أجابتها جدتي قائلة:

- سوف أسألكم ألغازا، ما رأيكم أن تتنافسوا في الإجابة ومن يعرف الإجابات الصحيحة سأشتري له هدية ثمينة؟ فماذا تقولون؟

ساد الصمت فيما بيننا للحظات. رفعت يدي وقلت لها نيابة عن أشقائي وأولاد عمي: "نحن موافقون يا جدتي. ولكننا نطمح بهدية أكبر".

حدقت بي جدتي بكل اندهاش وقالت:

- وما هي الهدية الأكبر يا ست مريومة؟!

أجبتها بهدوء وافتخار:

- أن تحكي لنا حكاية جديدة من حكايات القرآن الكريم.

اعتدلت جدتي في جلستها وأسندت ظهرها على الحائط وقالت:

- لكم ما تريدون. أما الآن فتهيأوا لمعرفة اللغز الأول: (لها الأشجار والحيوانات قوت، متى أطعمتها انتعشت وعاشت ولو أسقيتها ماء تموت) فما هي؟

لاحت على وجوهنا علامات التعجب والتفكير وكانت لدي رغبة شديدة لمعرفة الإجابة الصحيحة عن اللغز حتى أجبتها بصيغة السؤال وقلت:

-[هي نفسها التي تأكل ولا تشبع وإذا شربت ماء ماتت].

ارتسمت علامات التعجب على وجه جدتي وهتفت قائلة لي:

- أحسنت يا مريومة، ثم نظرت إلى الجميع وسألتهم: ها.. وأنتم ماذا تقولون؟

ابنة عمي ذكرى هي الأخرى أجابت بصيغة السؤال مثلي قائلة:

- [لديها أسنان، وليس أسنانًا حمراء، أو زرقاء، أو صفراء. ألوانها تشير إلى قوتها فيما تلتهمه التهاما] النار! أليس ذلك صحيحا يا جدتي؟

وجه جدتي أخذ يشع فرحا وإعجابا بذكرى وأسرعت بالقول:

- أحسنت أيتها البنت الذكية.

أحسست بالغيرة تجاه ذكرى لأنها أخذت تستحوذ على حب جدتي. لذا انصب اهتمامي على السؤال الثاني الذي ستطرحه الجدة علينا، وقلت لها

بتحد أكبر:

- هيا يا جدتي أسمعينا اللغز الثاني.

ابتهجت جدتي عندما سمعتني أقول هذا الكلام، لكنها غيرت طريقة طرح اللغز الثاني، وهي تصوب بصرها نحوي، ثم قالت:

- (شيء تجده في السماء وتجده في الأرض وينزل من السماء ويعيش عليه الناس)؟

ما هي إلا لحظات حتى أجبتها:

-[هو نفس الشيء الذي يستطيع الجري ولكنه يعجز عن المشي، إنه الماءُ!].

قالت لي الجدة:

- إجابة موفقة يا مريومة.

بينما قالت ذكرى بتحد أكثر:

-وما هو اللغز الثالث يا جدتي؟

قالت الجدة:

- (ما هو الشيء الذي يمشي ويقف وليس له أرجل)؟

مرت على الجميع لحظات صمت، أما أنا فقد هربت كل الأجوبة من ذهني.

بهدوء شديد قالت ذكرى لتعلن لنا أنها بطلة بلا شك في الإجابة الصحيحة:

- [هو نفس الشيء الذي يقول الصدق دوما ولكنه إذا جاع كذب].

صفقت الجدة بحرارة لذكرى وقالت: "أحسنت، إنها الساعة".

ابتسمت ابتسامة ماكرة في نفسي فقد اعترفت بهزيمتي أمام ابنة عمي ذكرى وقلت:

- وهل في رأسك من ألغاز أخرى يا جدتي؟

قالت جدتي:

- نعم يا مريم، هيا افتحوا أذهانكم! وعليكم أن تسعوا لمعرفة الإجابة الصحيحة، فاللغز هو:

- (مهم للحياة بعد الماء لولاه لما طار الطير في الفضاء).

أنا لم أعرف الإجابة وكذلك ذكرى وإيمان بنات عمي، مما جعل الآخرين من إخوتي وأولاد عمي يضحكون مكركرين بصوت عالٍ ليجيبوا بثقة تامة بدلا عنا نحن البنات:

- [هو الذي يتحرك دائما حوالينا ولكننا لا نراه يعني (الهواء) ! !].

قالت لهم جدتي:

- أحييكم جميعا يا فريق البنين، لقد فزتم بالهدية!

فرح أيمن كثيرا أخي الصغير وأخذ يقلد صوت الريح وينفذ الهواء من فمه تجاهي وتجاه ذكرى وإيمان أيضا. اعترضنا نحن البنات على طريقة أيمن في التعبير عن فرحته بالإجابة الصحيحة مع فريق البنين.

لكن جدتي قالت لنا:

- ليس في ذلك ما يدعو للغضب يا فريق البنات، والآن ليستعد الفريقان ليسمعا مني اللغز الآخر والأخير:

- (خمسة خلقهم الله من دون أب وأم فمن هم؟).

صمت الجميع في حيرة واندهاش لهذا اللغز الذي استعصت الإجابة

عليه، ولا أحد منا فتح فمه ولو بكلمة واحدة!

عندها قالت جدتي:

- ها؟ تعلنون الخسارة؟ انهزمتم في الجولة الأخيرة يا أحفادي الأذكياء؟

كل من الفريقين في صمت تام! مطاطئين الرأس خجلين من عدم معرفتنا الإجابة الصحيحة على اللغز الأخير، جدتي كانت تخفي ابتسامة نصرها علينا وبكل هدوء قالت:

- الجواب يا أولاد هو: أولا [آدم من تراب الأرض].

ثانيًا [حواء من ضلع سيدنا آدم].

وقبل أن تعلن جدتنا عن الجواب الثالث في اللغز، قلت لها:

- عذرا يا جدتي الغالية، احكي لنا عن آدم وحواء.

وقالت من بعدي ابنة عمي ذكرى:

ولنؤجل باقي الإجابات إلى الغد، ماذا تقولين يا جدتنا الغالية؟

ردت عليها جدتي وقالت:

- "ليس أحب إلى قلبي من ذلك، حسنًا. سيدنا آدم هو أبو البشر، وبعد أن خلق الله السموات والأرض والملائكة والجن، بدأت مسيرة الحياة، فشاء الله أن يخلق مخلوقا يقود الحياة، يقودها وفق ما يريد الله لها أن تكون. فخلق سيدنا آدم أبا البشر؛ ليكون خليفة في الأرض، وكان سيدنا آدم أول إنسان، بشرا سويا، يداه طليقتان لا يستعملهما للمشي كبقية الأحياء الحيوانية الأخرى ذوات أربع الأطراف، وأعطى الله آدم عقلًا يفكر ويتدبر ويختار ويميز الخير من الشر والحق من الباطل، وجعل الله آدم حرًّا فيما يختار وما يدع، ثم خلق الله لآدم زوجه حواء، وجعلهما أصل البشر

كلهم، وأسكن الله الزوجين الكريمين آدم وحواء الجنة. تنظر الملائكة إلى معجزة الله في خلقه آدم الذي يملك من الصفات ما لا تملكه الملائكة، وينظرون وهم يسبحون بحمد الله، فجاءهم الأمر الإلهي بتكريم آدم بالسجود له، سجدوا سجود احترام لا سجود عبادة بسبب تكريم الله إياه. ولكن إبليس لم يسجد لآدم، فخالف أمر ربه واستكبر وأعلن تمرده على أمر ربه، فسأل الله إبليس عن غرضه أو عذره في ذلك فقال:

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ الحجر: ٣٣

فجاءه أمر الله:

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ الحجر: ٣٤

وليس هذا حسب بل

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾ الحجر: ٣٥

لكن إبليس استمر في عناده فلم يتراجع، وسأل ربه

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ الحجر: ٣٦

وبهذا السؤال طلب من الله أن يمد حياته إلى آخر يوم من أيام هذه الدنيا. استبد الحقد بإبليس من تفوق آدم فأعلن عداءه السافر له ولذريته وهدد بأنه سيتربص بآدم وذريته، ويغويهم بالخطايا والمعاصي والكفر.

وأقبل الله سبحانه على آدم وزوجه، فأعطاهما الجنة كلها مسكنًا لهما، وأوحى الله إلى آدم يذكّره بنعم الله عليه، من نعمه أن خلقه إنسانا ذكيا عاقلًا مفكرًا، ونعمة تعليم الله له ما يتعلمه الملائكة، إذ علمه الأسماء

كلها بالقياس والتوليد والاستنساخ، ونعمة طرد إبليس بسبب عصيانه وعدم السجود له. فإذا عصى آدم أمر ربه، فإنه سيخرجه من جنته ونعيمها ورغدها، وأشار الله إلى شجرة معينة في الجنة، وأوصى آدم وزوجه فقال لهما:

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ البقرة: ٣٥

وهكذا عرف سيدنا آدم حقوقه وواجباته في الجنة، وراح يحيا فيها آمنًا مطمئنا مع زوجه حواء، ينعمان بالسعادة الإلهية، فلا خوف ولا ظمأ ولا جوع ولا حر شمس، مر الزمن عليهما سعيدين مغتبطين، ثم طرأت لآدم وزوجه فكرة الخلود، ورغبا في ألا يكونا مثل الأشياء الحية الأخرى التي تولد وتحيا وتموت".

شعور بالسعادة ملأ قلوبنا جميعًا، وأنا واحدة منهم، ونحن نسمع من جدتي حكاية الخلق الأولى لأبي البشر سيدنا آدم، ففي هذه الأثناء تبادر إلى ذهني سؤال فقلت:

- هل استطاع إبليس أن يغوي أبانا آدم وأمنا حواء بالخطيئة ويخرجهما من الجنة؟

هزت جدتي رأسها بالإيجاب، وقالت بكلام مشوب بالحزن:

- "خارج الجنة كان إبليس تطارده اللعنة والذم، وتملؤ التعاسة نفسه الجاحدة، فعزم على أن يخرج آدم من كل ما هو فيه من النعيم والسعادة والرضا الإلهي، وتسلل إلى حيث يسكن آدم في الجنة وبدأ يوسوس له وسوسة كرنين الذهب تأسر السمع فتصغي له الأذن كل إصغاء.

وقال إبليس ماكرًا متلونًا كاتمًا بغضه مظهرًا النصح:

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ طه: ١٢٠

الخلد! كأن اللعين يعرف أنها أجمل الكلمات وقعًا على نفس آدم. لكن آدم ظل ملتزمًا بأمر الله فلم يسأل عن الشجرة، ولم يقترب منها، فعاد إبليس يوسوس لآدم وزوجه حواء فقال لهما:

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الأعراف: ٢٠

ولم يكتف إبليس بهذه الوسوسة الخادعة بل إنه حلف لهما بالله وأقسم بأغلظ الإيمان بأنه صادق.

وهكذا غرهما إبليس بوسوسته وقسمه الكاذب، فما كان من آدم وحواء إلا أن ذاقا من الشجرة بعد أن نسي آدم عهد الله له بألا يقترب الشجرة.

ووقع الزوجان في الخطيئة الأولى، وما أن أكل آدم وحواء من الشجرة حتى خبا ذلك النور الذي كان الله تعالى قد ألبسهما إياه، فأخذا يلزقان من ورق الجنة ورقة فوق ورقة لسترهما وملأ الندم والخيبة قلب آدم وحواء، وأخذا يحاولان الاختباء بين أغصان الشجر، وكان الارتباك والندم قد غلبهما فاستحوذ عليهما الخوف والحياء من ربهما، ولكنهما عندما سمعا ذلك النداء الرباني بلومهما تضرعا إلى الله معلنين اعترافهما الخطيئة وقد خسرا الجنة، وبهذا تفوق آدم مرة أخرى على إبليس فأثبت أنه أقرب إلى

الله حتى في المعصية، فأصبح آدم ضارعا يتوسل إلى الله بالمغفرة والتوبة وأدرك هو وحواء أول مرة أن الإنسان خطاء بطبعه، فكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون.

وبهذا تاب الله على آدم وحواء لأنهما أسرعا إلى الندم والتوبة الصادقة العميقة، كان آدم يأمل أن يبقى في الجنة بعد أن غفر الله له وتاب عليه، فقد ذاقا نعيم الجنة، فخرجا منها".

وكيف كانت حياة أبينا آدم عندما طرد إلى الأرض، سؤال قاله أزهر لجدتي؟

أجابت الجدة:

- أخبر الله سبحانه الملائكة أنه شاء وقدر أن يجعل في الأرض خليفة. خليفة يكون له أبناء وأحفاد وذرية ينتشرون في الأرض كلها. استمع الملائكة إلى هذا الأمر الإلهي وخمنوا أن الخليفة المقصود هو آدم نفسه. وخاف الملائكة أن يكون تقصير بدر منهم هو السبب في اختيار آدم لخلافة الأرض فسألوا ربهم كيف يستخلف البشر وفيهم من يفسد في الأرض بالمعاصي ويريق الدماء بالقتل والعدوان بسبب اختلافهم على منافع الأرض. وأكد الملائكة مرة أخرى طاعتهم الدائمة لله سبحانه وكأنهم يقارنون أنفسهم بآدم وذريته، ويرون أنهم أحق من آدم بالخلافة. امتحنهم سبحانه بالقدرة والمعرفة والعلم، فوجدوا أن لآدم عقلًا لا يملكون مثله فأقروا بتفوق آدم عليهم. وفي خلال كل هذا كان آدم يتلقى الأمر من الله، ويسمع حوار الملائكة مع ربهم من غير أن يسأل أو يستعلم، ولم يفعل إلا ما أمره الله به، حين

قال الله له:

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ ﴾ البقرة: ٣٣

فامتثل وأنبأهم بأسمائهم من غير أن يسال عن أي شيء برغم أنه حديث العهد بالوجود، وبهذا كان سيدنا آدم في غاية الخشوع لله. كانت الأرض هي الوطن الجديد لآدم وحواء. ومنذ أن صدر الأمر الإلهي لآدم بالهبوط إلى الأرض هبط آدم وشرح يعيد الله تعالى؛ فإنه يعرف أن أول واجبات هذه الخلافة هي عبادة الله ويعلم أن مدة إقامتهما على الأرض محدودة حسب مشيئة الله، وكذلك يعلم أنه يحيا ويموت ويخرج من الأرض نفسها. ثم يمد بصره في الأرض فيرى فيها من الخيرات والزروع والثمار بركات كثيرة فيتذكر نعيم الجنة التي أخرج منها، أما الآن فصار لا ينال قوته إلا بالكدح والكد. وكانت هذه أول أسرة إنسانية على الأرض.

تعلقت أعيننا بالجدة أكثر ونحن نصغي بكل اهتمام لحكاية أبينا آدم وأمنا حواء.

بعد كل الذي سمعناه من الجدة، خطر سؤال في ذهني ومن فوري سألتها وقلت:

- عذرًا يا جدتي الغالية، وأنا أصغي لحكاية خلْق الله لأبينا آدم وأمنا حواء، ألم يخلق سواهما والشيطان؟

ردت جدتي قائلة:

- سؤال يطرح نفسه وإن أجمل الجواب عليه. خلق الله كذلك الملائكة وهم من عباد الله، فبعض الملائكة رسل الله إلى عباده الأنبياء، وخلق الله سبحانه ملائكة على النار، ومن الملائكة من يعمل شهيدًا يشهد على النفس

البشرية، وهناك ملكان كريمان هما (المتلقيان) اللذان يكتبان في صحيفة عمل كل إنسان، حسناته وسيئاته، أحدهما (عن اليمين) يكتب الحسنات، والآخر (عن الشمال) يكتب السيئات، وهما (رقيب وعتيد) يكتبان على الإنسان كل (ما يلفظ من قول) ملكان حاضران عندنا لا يفارقاننا، وهناك ملك يسدد خطانا ويوجه حركاتنا نحو الخير.

لم تتحمل إيمان الانتظار كي تنهي جدتي كلامها وقالت:

- أفهم من كلامك أن الله تبارك تعالى قد خلق البشر والملائكة والشياطين فقط؟

أجابتها جدتي قائلة:

- سؤال ذكي تطرحينه يا إيمان، وخلق كذلك الجن والجان، هم خلق آخر غير الملائكة. وقد خلقهم الله (من نار السموم) وهي نار لا دخان لها تنفذ من المسام، ولهم قوانين خاصة بهم، أودعها الله فيهم، منها أنهم يتشكلون بهيئات عديدة، ويتحركون بحركات خفيفة في تنقلاتهم، والجن أمم مثل البشر، منهم الصالحون، ومنهم الكافرون.

زدنا دهشة وتعجبا مما نسمعه من لسان جدتي عن الجن والجان، وقلت متسائلة:

- هل نستطيع نحن البشر رؤيتهم؟ ومن يستطيع التعامل معهم؟

قالت:

- الجن يرون الناس، لكن الناس لا يرونهم. أما من يستطيع التعامل معهم فمن الجن من عملوا لدى بعض الأنبياء وقاموا بأعمال متنوعة خارقة، كالجن الذين عملوا لسيدنا سليمان.

أزهر هو الآخر أخذ يسأل جدتي وقال لها:

- وكيف أصبحوا صالحين؟ ومن دعاهم إلى التوحيد؟

أجابته قائلة:

- وقد بُعث النبي محمد ﷺ إلى الجن كما بُعث إلى الإنس، فدعاهم إلى التوحيد وأنذرهم وبلغهم القرآن، وقد استمع نفر من الجن إلى النبي وهو يقرأ القرآن ويصلي بأصحابه في صلاة الفجر في وادي بطن (نخلة) وهي في طريق الطائف، فعادوا إلى قومهم فأخبروهم بما سمعوا، وآمنوا بالله.

أخي أيمن الذي هو أصغرنا سنًّا تشجع وسأل جدتي قائلًا:

- وكيف تكاثر البشر بعد أن هبط آدم إلى الأرض التي نعيش فيها؟

ابتسمت الجدة فرحة وقالت:

- ومرت الأيام وإذا بالسيدة حواء تحمل من زوجها آدم، ثم تلد له طفلين توأما، ولدا وبنتًا، ففرح الزوجان وحمدا الله، وأصبحا من تلك الساعة أبًا وأما. وسميا الولد (قابيل). ثم تمر الأيام والشهور، وتلد السيدة حواء توأما آخر، وسميا الولد (هابيل). وقد اختص (قابيل) بزراعة الأرض، واختار (هابيل) رعي الأنعام من إبل وبقر وغنم وماعز، وكان أبوهما معلمهما الأول يرعاهما ويدلهما على كل خير، وكانت البنتان قُرتي أعين أبويهما. وكانت هذه أول أسرة إنسانية على الأرض، وبلغ الولدان مبلغ الرجال فأصبحا يرغبان في أن تكون لكل منهما زوجة يسكن إليها ويطمئن بقربها. وكذلك الفتاتان بلغتا سن النساء. فأوحى الله تعالى إلى آدم أن يزوج (قابيل) من أخته توأم (هابيل)، ويزوج (هابيل) من توأم (قابيل). فلم يقبل (قابيل) بهذه القسمة واتقدت في نفسه نار الحسد لأخيه ولم يوافق على ما

أمره به أبوه. وكان سبب ذلك الحسد أن أخت قابيل التي ستصير زوجًا لهابيل كانت أكثر جمالًا من أخت هابيل التي ستكون زوجا لقابيل، فأراد (قابيل) أن يستأثر بتوأمه لنفسه. وشعر آدم عليه السلام بالحيرة لهذا الخلاف الذي وقع بين ولديه ولم يجد حلًا يعيد الود والسلام بينهما فأوحى الله إلى آدم أن يطلب من ولديه أن يقدم قربانًا إلى الله. والقربان هو كل ما يتقرب به الإنسان إلى الله من صدقة أو ذبيحة. وكانت علامة قبول القرابين أن تنزل من السماء نار بيضاء فتأكلها. فإن لم تنزل لم تكن القرابين مقبولة. وقبل الشقيقان بهذا الحل. فقرب (قابيل) حزمة زرع من رديء زرعه. أما (هابيل) فقرب جملًا سمينًا من أنعامه. فنزلت نار فأكلت قربان (هابيل). وكان (هابيل) أكثر توفيقًا وأشد صلاحًا. ولم تأكل النار قربان (قابيل) لعدم رضاه بحكم أبيه وعدم إخلاص نيته في قربانه فضاع أمله. وازداد (قابيل) حسدًا لأخيه وسخطًا عليه. وبعد أن توعد (قابيل) أخاه (هابيل) بالقتل وهدده سأل (هابيل) أخاه (قابيل):

- ولمَ تريد قتلي؟!!

قال:

- لأن قربانك تُقُبل ولم يتقبل الله قرباني.

فرد عليه (هابيل):

- { إنما يتقبل الله من المتقين }.

ولأن (هابيل) كان رجلا مسالما تقيا صادق البر بأبويه، خالص الود لأخيه، لم يأخذ تهديد أخيه مأخذ الجد. وكان قويا شجاعا حكيما تحرج من قتل أخيه خوفًا من الله. غير أن (قابيل) المتوقد بالحقد أصم أذنيه

وعقله عن النصح ولم يرع حق أبويه، وظل مصرا على تنفيذ تهديده، وقتل أخاه (هابيل) فوقع في أسوأ ورطة!

كان (هابيل) مُلقًى على الأرض جثة هامدة تضرجها الدماء. و(قابيل) لا يعرف ماذا يفعل! فها هو أمام أول موت إنساني شهدته الأرض!! موت صنعه بيديه الآثمتين لأقرب الناس إليه. شقيقه (هابيل) الشهيد الأول.

حمل (قابيل) جثة أخيه في جراب فوق ظهره وراح يدور بها حائرا مضطربا مذعورا لا يدري ماذا يفعل. ومر الوقت بطيئًا والجثة تتعفن وتتغير رائحتها. فشاء الله أن يشعره بعجزه ويبين له أنه أقل شأنا وفهما حتى من الغراب! بل أراه الله أن الغراب يعرف أمر الموتى أكثر مما يعرف (قابيل) المغرور. فنظر وإذا به يرى غرابين أمامه قد أخذا يقتتلان، حتى قتل أحدهما الآخر. وفي الحال راح الغراب القاتل يحفر حفرة بمنقاره دفن فيها جثة الغراب القتيل، فواراه الترابَ. حدث كل هذا و(قابيل) ينظر مذهولًا وجثة أخيه فوق ظهره، وأدرك أنه أهون حتى من الغراب، فقال متحسرا خائبا وذليلا يائسا: {ياويلتي أعجزت أن اكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي}. اعترف (قابيل) بعجزه، فأصبح من النادمين على فعلته ودفن أخاه كما علمه الغراب، ومنذ ذلك الوقت صار دفن الموتى سنة سنها الله لعباده. عاد (قابيل) إلى أبيه بعد أيام حزينا ذليلا، فسأله أبوه وقد استوحش لغياب ابنه:

- أين أخوك يا قابيل؟

فرد عليه (قابيل) بحقد مليء بالريبة والخيبة:

- لا أدري أين هابيل فأنا لست وكيلا عليه ولا راعيًا حفيظًا له.

لم يمض وقت طويل حتى عرف آدم أن (قابيل) قد قتل (هابيل) فحزن آدم حزنا شديدا على ولده الشهيد الكريم. وكان موت (هابيل) أول مصيبة وامتحان لآدم على الأرض، فتلقاها بصبر جميل، وفر (قابيل) هربًا عن وجه أبيه وأخذ معه توأمه وتوجه إلى الأرض التي أصبحت فيما بعد تعرف ببلاد اليمن. وهناك أفسد في الأرض هو وأولاده.

انطلق فجأة صوت أذان المغرب من المسجد القريب من بيتنا، وهنا نهضت الجدة متثاقلة متعبة وقالت لنا:

- هيا لنتوضأ ونصلي جميعا صلاة المغرب.

بعدها تفرقنا إلى داخل المنزل وكلنا حماس وحيوية أكثر بعد أن سمعنا قصة أبي البشر أبينا آدم وحكايته مع إبليس وخطيئته ومن ثم العيش في الأرض الجديدة وتكوين أول أسرة على سطح الأرض. تبارك الخالق العظيم في شأنه.

(عصر الجمعة)

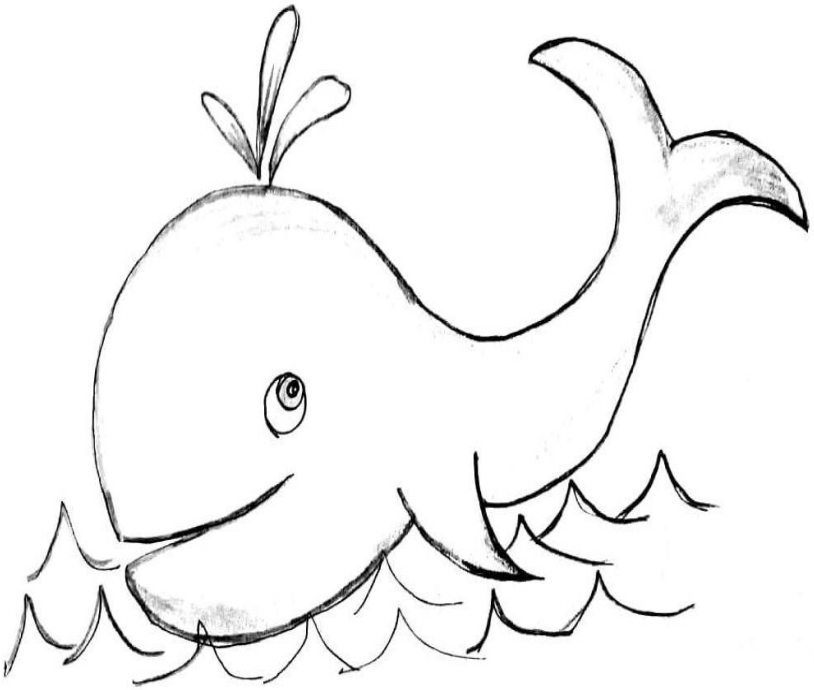

بعد أن قضينا ليلة الخميس وظهر الجمعة، غادرنا بيت عمي منير عصرا، وفي طريق العودة إلى البيت كانت سيارة أبي تلتهم الطرقات، ومرت من أمام جامع النبي يونس، فقالت جدتي متنهدة تخفي من وراءه هذه التنهدات الكثير من عبارات الحزن:

- آه! ما أجمل تلك الأيام التي انقضت، كنا بين الفينة والأخرى وفي أوقات المساء من أيام الربيع والصيف نجلس فوق جبل التوبة وعيوننا كأنها آلة تصوير تجوب أرجاء المدينة بزاوية ١٨٠% نتطلع إلى مدينة الموصل الجميلة التي تعبق بتاريخها وتراثها وفلكلورها وحضارتها الإنسانية الزاهرة التي انتشرت فيها مآذن الجوامع التي تضم رفات الأنبياء والصالحين، لكن منارة الجامع النوري الكبير الحدباء هي خير شاهد على عنوان المدينة التي سميت باسمها (الحدباء).

ثم صمتت جدتي عن الكلام، وقالت بأسى كبير:

- السلام عليك يا ابن متى.

اندهشت من قولها هذا مما دفعني لأسألها على الفور ودون استئذان:

- ابن متى! ومن يكون هذا يا جدتي؟

ردت جدتي قائلة:

- ذو النون يونس عليه السلام.

وهنا كبر السؤال في رأسي وأردفت قائلة:

- ذو النون؟!

ردت:

- أجل، النون هو الحوت.

مرت الدقائق الأولى بصمت، ثم سألها أخي أزهر قائلا:

- وما علاقة الحوت بالنبي يا جدتي فتحية الغالية؟

أيمن أصغرنا هو الآخر راح يسألها بفرح كبير، وقال:

- بالله عليك يا جدتنا الغالية، احكي لنا عن حكاية النبي والحوت.

ردت الجدة قائلة:

- "أعدكم بذلك، لكن ليس الآن، عندما نصل البيت إن شاء الله".

وما أن وصلنا البيت وكل راح يستبدل ثيابه، راحت جدتي تعتكف قليلا لأن لديها طقوسا خاصة بأوقات الصلاة وخصوصًا قبل صلاة المغرب، وما أن انتهت من صلاتها، كانت لغة العيون فيما بيننا نحن الإخوة هي التي نتخاطب بها ومن هو الأول الذي سيطلب من جدتي أن تحكي لنا عن النبي يونس والحوت! فاقتربنا من الجدة وجلسنا على مقربة منها وكان أيمن هو البادئ بالسؤال حينما قال لها:

- وعد الحر دين يا جدتي الغالية، عليك أن تفي بوعدك أليس كذلك؟

ابتسمت جدتي، وردت على سؤال أيمن:

- صحيح، وأنا ما زلت عند وعدي، لكن قبل أن أحكي لكم حكاية النبي يونس عليه السلام، هل أتممتم واجباتكم المدرسية؟ نحن اليوم في نهاية عطلة الجمعة وغدا بإذنه تعالى ستذهبون إلى مدارسكم نشيطين، صحيح هذا الكلام يا أولاد؟

صحنا بصوت واحد وكأننا تلاميذ الصف الأول الابتدائي ونحن نصغي لتوجيهات المعلم أو المعلمة:

- نعم يا جدتنا الغالية!! نعم.. نعم!

صاح أزهر من فوره:

- يا جدتي الغالية، الآن هو عصر الجمعة وأمامنا الليل بطوله.

قلت لها:

- وأنا قد أتممت واجباتي منذ ظهر الخميس يا جدتي.

رد أيمن قائلا:

- وأنا عندي درس في الجغرافية بسيط جدا عن منبع نهري دجلة والفرات وقد حفظته عن ظهر قلب.

هزت رأسها وقالت:

- "آه منكم! جيل اليوم، من يستطيع أن يتغلب عليكم.. اسمعوني جيدًا يجب أن أنهي الحكاية قبل صلاة المغرب.. يونس بن متى عليه السلام، هو الذي يدعى (ذا النون) والنون هو الحوت. وقد أرسل الله يونس نبيا إلى أهل (نينوى) من أرض الموصل في العراق، وكانوا كافرين يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى عبادة الله عز وجل، فكذبوه، وظلوا على كفرهم وعنادهم، ولكنه مكث يدعوهم إلى الهدى والإيمان زمنا طويلا، وكانت سنه عندما بدأ دعوتهم ثمانيَ وعشرين سنة. فأقام فيهم ثلاثا وثلاثين سنة، ولكن لم يؤمن به إلا رجلان اثنان هما (روبيل) الحكيم و(تنوخا) العابد الزاهد، فطال عليه ذلك، فهو يدعوهم ويذكرهم بالله وهم يصرون على كفرهم وعبادة أوثانهم. حتى يئس يونس من إيمان قومه، وفي ساعة ضجر غضب يونس

على قومه، وقال لهم كلامًا أنذرهم به من تلقاء نفسه كأنه يهددهم قال:

- أمامكم ثلاثة أيام! إن لم تؤمنوا بعدها فسيرسل الله عليكم نارا من السماء تأكل الأخضر واليابس.

قال يونس هذا الكلام وهو غضبان على قومه من أجل ربه، وذلك لكفرهم أول أمرهم. وسرعان ما انتشرت كلمة النبي يونس هذه بين قومه، لكنهم لم يبالوا بها ولم يكترثوا. ثم مضت الأيام الثلاثة من دون أن تنزل نار من السماء، فاشتد حرج يونس، وأدرك أنه قال ما قال بتسرع منه واستعجال، وأنه لم يتلق من ربه الذي أرسله أمرا بأن يخاطب قومه بذلك القول، وينذرهم بذلك التهديد الشديد. ولم يجد يونس أمامه إلا أن يفارق قومه، ويغادر مدينتهم.

وهكذا تسلل يونس من نينوى (ذهب مغاضبا) لقومه لأنه كان يدعوهم إلى الإيمان فيكفرون، ومضى وحيدا إلى حيث يشاء الله. ولكن ما أن غادر يونس نينوى فابتعد عن قومه، وخرج من بين ظهرانيهم، حتى أقبلت سحابة سوداء مكْفهرَّة، فيها دخان شديد، هبطت على مدينتهم، حتى أحسوا بحرها بين أكتافهم، فتيقنوا من صدق قول نبيهم، وتهديده إياهم، وتحققوا نزول العذاب بهم. قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فذهبوا يهرعون إلى يونس، يفتشون عنه ويبحثون، لكنهم لم يجدوه. ثم انطلقوا إلى خارج المدينة، وتوجهوا إلى الله سبحانه بالدعاء، وأعلنوا توبتهم، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات، وكانت ساعة عظيمة، وفي هذه الساعة العظيمة أخذ أهل نينوى معهم أنعامهم ودوابهم ومواشيهم، فارين من تلك الغيمة السوداء التي

خافوا منها وقوع البلاء، فأخذت هذه الأنعام والدواب تجأر مع أهلها، فالإبل ترغو، والبقر تخور، والأنعام تثغو. وهكذا آمن قوم يونس وتابت نينوى بأهلها، فتاب الله عليهم، فكشف عنهم العذاب الذي كان قد أوشك أن يحل بهم، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم.

لقد خرج يونس متخفيا وحيدًا هائمًا على وجهه تاركًا قومه وقريته نينوى، ذهب غضبان على قومه من أجل ربه، خرج بعد أن هددهم وتوعدهم بعذاب من عند ربهم، غادر نينوى وترك قومه بغير إذن من ربه، ظن يونس بأن الله ربه لن يضيق عليه، وذلك لتركه قومه من غير أمر من الله سبحانه، ظن يونس هذا الظن لشدة أمله ورجائه رحمة ربه، ومشى يونس وحيدًا، فقطع مسافات طويلة، ومضى بعيدًا، حتى وصل إلى ساحل البحر، فهرب إلى سفينة مملوءة مشحونة بالرجال، فركبها وهو لا يدري إلى أين هو ذاهب. ثم أبحرت السفينة، وفجأة هبت ريح شديدة، وجاءهم الموج من كل مكان، فاضطربت السفينة وماجت بركابها وثقلت بما فيها، وكادوا يغرقون فارتفع صراخ الركاب وصاحوا بذعر وهلع:

- (بيننا عبد آبق! بيننا عبد هارب! !) .. (من هو ذلك العبد الآبق الهارب من سيده؟) ... (لا بد من إلقائه في الماء لتنجو السفينة من الغرق!).

وكانت تلك عادتهم إذا هاج البحر عليهم، فتشاوروا فيما بينهم على أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه في البحر ليتخففوا منه. فأجروا القُرعة فيما بينهم ويونس معهم، فضرب القرعة، فكانت من نصيب سيدنا يونس!!".

وسأل أزهر مدهوشا:

- وماذا فعل النبي يا جدتي؟ هل رمى بنفسه في البحر؟

ثم قالت الجدة بهدوء وببطء:

- "هذا ما حصل. وهكذا كان يونس من المغلوبين بعد أن وقعت القرعة عليه فقام وألقى نفسه في البحر!".

ازددنا ذهولًا وسأل أيمن جدتي قائلا:

- وماذا حصل له بعد أن القى بنفسه في البحر؟

أجابته جدتي قائلة:

- "وسط تلك الأمواج العاتية، بعث الله حوتا عظيما، وفي اللحظة التي رمى يونس بنفسه كان الحوت بانتظاره، ابتلعه الحوت بعد أن ألهمه الله (إني قد جعلت بطنك له سجنا، ولم أجعله لك طعاما، فلا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما).

ولما استقر يونس في جوف الحوت حسب أنه قد مات، فحرك جوارحه فتحركت، وأحس بتراكم الظلمات حوله، ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، فناجى ربه متضرعا:

- (إلهي لأسجدن لك في مكان لم يسجد لك فيه أحد قبلي)، وسجد يونس في مكانه، وتضرع إلى ربه وقال:

﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الأنبياء: ٨٧

فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش، فقالت الملائكة:

- (يا رب.. صوت ضعيف معروف قادم من بلاد غريبة).

فقال:

- (أما تعرفون ذلك الصوت؟).

قالوا:

- (لا يا رب، ومن هو؟).

قال:

- (عبدي يونس).

قالوا:

- (عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة؟).

وقالوا أيضا:

- (يا ربنا.. أوَلا ترحم ما كان يصنعه في الرخاء فننجيه من البلاء؟).

قال:

- (بلى)

فأمر الله الحوت فطرحه في العراء.

لقد نادى يونس ربه متضرعا خاشعا، فاستجاب الله دعاءه، ففرج عنه كربته، فلم يلبث في بطن الحوت أكثر من ساعة. لو لم يقل يونس هذا التسبيح، لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، ولأصبح بطنه قبرا له ولبعث من جوف ذلك الحوت، وبعد أن استجاب الله دعاءه وتضرعه، أمر الحوت فقذفه على الساحل، لقد ألقى الحوت يونس في ذلك المكان المقفر (العراء) الذي ليس فيه شيء من الأشجار بل هو عارٍ منها، ولا ظل فيه، ألقاه سقيما مريضا، ضعيف البدن كهيئة الصبي حين يولد، أو كهيئة الفرخ ليس عليه ريش".

لم أتحمل ما يحصل للنبي يونس، وقلت:

- ياه!! رحماك ربي، كم أنت كريم بعبادك المستضعفين. ثم توقفت عن الكلام، وواصلت جدتي حديثها وهي تقول:

- "وهذا هو يونس عليه السلام مطروح على الساحل، ضعيف البدن ضئيل هزيل، فتلقفته عناية الله الرحمن الرحيم ولطفه، فلولا تلك الرحمة السابغة لطُرح هناك، في ذلك المكان الواسع القفر الخالي من الشجر، ملام على ما ارتكب، ها هو سيدنا يونس يتلقى رحمة الله، وينظر قليلا فيرى فوقه ظلا ظليلا، فها هي أوراق خضر عريضة ناعمة طرية تظلله فتتجه كل ورقة إلى جزء من جسمه فتلتف عليه كأنها ضماد يلفه ويحميه، إنها شجرة القرع التي لا يقربها الذباب، وكان جسم يونس لا يحتمل وقوف الذباب عليه، ولم يعد ضوء الشمس يلسع جسد يونس بحرارته الشديدة. ثم امتدت ثمرة قرع طرية ناضجة إلى فم يونس لتكون غذاء له ودواء لجسمه وشفاء، ثم هيأ الله للنبي ظبية تسقيه بدل الماء حليبًا صباح مساء. فكانت تلك الظبية تأتي إلى يونس وترضعه من لبنها، ثم تروح ترعى في البرّيَّة، وكانت تأتيه بكرة وعشية.

ومرت الأيام ويونس يظله اليقطين، وترضعه الظبية التي سخرها الله له، حتى تماثل للشفاء واستعاد عافيته بلطف الله ورحمته.

وذات يوم وجد يونس يقطينة ذابلة، فقد سلط الله عليها حيوانًا قارضا فأكل أصلها، ولفحتها ريح السموم فذوت وذبلت. فشق ذلك على نفس يونس، فحزن على اليقطينة، يقطينته التي احتضنته وحنت عليه كما تحنو الأم على وليدها، حزن يونس وبكى من أجلها، وفيما هو كذلك

جاءه النداء الكريم:

- (يا يونس أنت الذي لم تخلق، ولم تسق، ولم تنبت تحزن على ورقة من شجيرة، فأنا الذي خلقت مئة ألف من عبادي أو يزيدون، تريد مني أن أستأصلهم في ساعة واحدة وقد تابوا وتبت عليهم فأين رحمتي يا يونس وأنا أرحم الراحمين؟).

فلما استكمل يونس قوته وعافيته، رده الله إلى قومه الذين هرب منهم في نينوى، ورد الله إليه الوحي وشفعه في قومه. آمنوا بالله ربا وبيونس نبيا. لقد آمنوا بعد أن شاهدوا علامات العذاب الذي وعدوا به فأبقاهم الله متمتعين في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم. ومات يونس عليه السلام، وقبره في مدينتنا الحبيبة الموصل.

(الخميس الثاني)

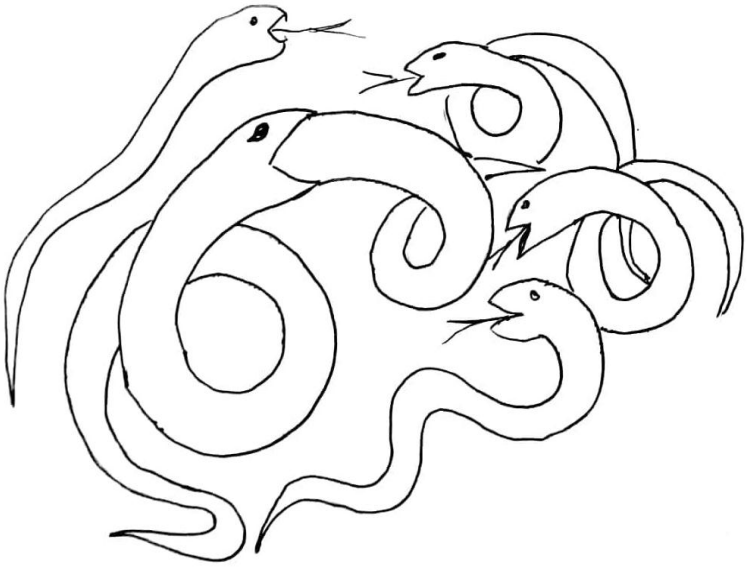

عدت من المدرسة وكذلك عاد شقيقاي أزهر وأيمن، وما أن دخلنا البيت، وجدت أمي وجدتي منشغلتين بتهيئة لوازم الطبخ وصنع المعجنات. ما يحدث اليوم ليس مألوفًا، مما حدا بي أن أسأل عن السبب، وقبل أن يلفظ لساني السؤال بادرت جدتي قائلة:

- هيا يا مريومة اتركي حقيبتك المدرسية، هيا اغسلي الأطباق حتى تتناولوا طعام الغداء.

لبيت في الحال تنفيذ ما أمرتني به جدتي وبينما انا اقوم بغسل الصحون الزجاجية سألت أمي:

- ماذا يحدث يا أمي؟ تصنعون طعاما أكثر من صنف، وجدتي تصنع المعجنات والفطائر هل من مناسبة في هذا اليوم؟

ردت أمي قائلة:

- لا وجود لأي مناسبة، لكن جدتك لن تذهب اليوم إلى بيت عمك منير.

صرخت من مكاني صائحة كأن نارًا لسعتني وكاد الصحن الذي بيدي أن يسقط على الأرض وقلت:

- يا له من خبر سار، سيأتي أولاد عمي ونسمع من جدتي حكاية خميس جديدة.

صاحت الجدة وهي تحدق بعينيها من وراء نظارتها الطبية:

- هيا أكملي غسل الصحون قبل أن أغير رأيي!

تركت الصحن الزجاجي من يدي وهرعت إليها لأقبلها متوسلة، ولكن قبل أن أصل إليها صاحت:

- حسنا.. حسنا يا عزيزتي، لا تقتربي فيداك ملطختان بسائل التنظيف.

وعندما أذنت شمس النهار بالغروب، إذا بمزمار سيارة يزمر لأكثر من مرة، هرعنا نحن الثلاثة أنا وأخواي أزهر وأيمن إلى الباب الخارجي للمنزل وإذا بسيارة عمي تقف في الباب، ثم خرج من ورائنا أبي وأمي وجدتي واستقبلنا عمي وزوجته وأولاد عمي (ذكرى وراشد وإيمان) بكل حب وحنان وشوق. مرت ساعات فهطل الظلام على البيت وحل الليل، ظل أبي وأمي وعمي وزوجته يتبادلون الأحاديث في غرفة المعيشة، وجدتي كالمعتاد عند الساعة العاشرة تذهب إلى غرفتها لتنام. أما نحن الستة فقررنا أن ندخل إلى غرفة جدتي، وتحلقنا حولها مثل نبات متسلق يلتصق بالحائط، وابتدأت بالكلام ذكرى ابنة عمي منير وقالت:

- هل تتذكرين يا جدتي الغالية في الخميس الفائت عندما كنت في بيتنا، وسألتنا عن اللغز (خمسة خلقهم الله دون أب وأم؟) وتحدثت لنا عن اثنين هما أبونا آدم وأمنا حواء، حان الوقت لنعرف الثلاثة الباقين؟

نهضت الجدة وأسندت رأسها على سرير نومها بحيث يراها الكل ويسمع منها ما ستقوله فقالت:

- لكم ما تريدون يا أحفادي الغالين، ففرحتي اليوم كبيرة بأنكم تجلسون معي وعلى سرير نومي. أما الجواب الثالث من اللغز، فهو يا أحبتي: (كبش سيدنا إسماعيل أنزله الله من السماء).

ردد الجميع بتعجب وذهول:

- كبش من السماء!!

- "أجل، في ليلة من الليالي جاءت رؤيا لإبراهيم في نومه وما كان أصدقها من رؤيا، وما كان أشد وقعها على نفس إبراهيم.

في الصباح أقبل إبراهيم على ولده إسماعيل، وأخبره برؤياه:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾ الصافات: ١٠٢

فلم يفزع إسماعيل ولم يخف ولم يتردد، لأنه أطوع الناس لأبيه، فأجاب راضيًا طائعًا مطمئنا قائلا:

﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ الصافات: ١٠٢

فتهيأ إبراهيم لذبح ولده إسماعيل، فقد امتحن الله نبيه إبراهيم بأن يذبح أعز ما سأل الله أن يعطيه، كل هذا الامتحان ليظهر صفاء خُلة إبراهيم لله تعالى. قال إسماعيل بصبر وجلد، لا خوف فيه ولا رهبة:

يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب، واكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيء من دمي، فتراه أمي فتحزن، وأحد شفرتك، وأسرع بها على حلقي ليكون الموت أهون علي، وإذا أتيت أمي فأقرئها مني السلام. وإن رأيت أن ترد قميصي عليها فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني.

ثم أخذ إبراهيم يحرك السكين على حلق ولده إسماعيل. ولكن السكين لم تفعل شيئا، فلم تقطع جلدا ولا لحما، وما كانت هذه إلا معجزة أخرى لإبراهيم، فقد أبطل الله عمل السكين كما أبطل عمل النار من قبل، ولكن إبراهيم استمر في تنفيذ أمر ربه فأعاد المحاولة مرة ومرتين وثلاثا ولكن من دون جدوى. فالسكين لا تعمل أبدا! ونجح إبراهيم وولده الحليم إسماعيل في هذا الابتلاء العظيم والامتحان الشاق الواضح. والتفت إبراهيم حوله فإذا هو يرى بجواره كبشا عظيما، هو كبش فداء لإسماعيل، كبش عظيم قد رعى في الجنة أربعين خريفا، وكان كبشا أبيض عيناه سوداوان، كبير القرن، فقام إبراهيم وذبحه بالسكين نفسها، فعملت فيه وصرعته في الحال. استبشر إبراهيم وولده إسماعيل برحمة الله، وفرحا بالنجاة، وشكرا الله على نعمه. ثم صار ذبح الضحايا سنةً للمسلمين في كل عام إحياء لذكرى نجاة إسماعيل الذبيح".

سكتت جدتي للحظات واستعادت أنفاسها ثم قالت:

- أما الجواب الرابع من اللغز فهو: (حية سيدنا موسى عليه السلام من عصاه).

قال ذاكر ابن عمي بتعجب:

- حية من عصا!! كيف؟!

أجابته جدتي قائلة:

- "بعد أن هرب موسى عليه السلام من فرعون، وهرب إلى مدين حيث تزوج صفورة بنت سيدنا (شعيب عليه السلام) الرجل الصالح، وقضى معها عشر سنين

يعمل راعيا عند أبيها، فلما بلغ الأربعين من عمره، أحس في قلبه حنينا إلى مصر وأهله، فعاد إلى مصر متخفيا، مقبلا على الخطر نفسه، خائفا منه، يتوقعه ويخشاه، وهذه المرة أيضا سلك طريقًا أخرى غير التي جاء فيها أول مرة. فقد سلك طريقا جانبية بعيدة عن طريق القوافل الآمنة، فاجتاز بادية الشام من جنوبها، ولما كان لا يعرف الطريق استعان بالله هاديًا له كشأنه دائما. ومرت أيام وليال كان موسى فيها خير العون لزوجته على حالها وهي في أواخر أيام حملها. ثم وجد موسى نفسه يقف إلى جانب جبل الطور الأيمن وكانت الشمس توشك أن تغيب. ونظر موسى إلى صفورة فوجدها مرهقة من السير الطويل والحمل الثقيل فأشفق عليها كل إشفاق. ثم نظر حوله فوجد ربوة من الأرض مستوية، فأقام عليها خيمته ليقضي فيها الزوجان ليلتهما تلك. وما أن اطمأنت صفورة في الخيمة حتى بدت عليها بعض علامات الولادة فأسرع موسى نحو تلك النار، ملهوفا يتعجل الوصول، وهو يقاوم الريح الشديدة، ويقاوم المطر المنصب انصبابا، وقبل أن يقترب موسى من النار اقترابا شديدا، سمع نداء

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾ طه: ١١ - ١٢

يا للمفاجأة الكبرى. فمن هنا غير موسى؟! لقد سمع موسى نداء عظيما ما سمع بمثله من قبل قط، سمع موسى نداء امتلأ به كيانه كله امتلاء، يأتيه من الجهات الست كلها، وكأن كل جسمه صار أذنا تصغي، وقلبًا يحس، وفؤادا يعقل.

وعاد هذا النداء يأمره بأن يخلع نعليه. ولما وصل إلى مكان النار

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ القصص: ٣٠

حيث جاء النداء الكريم من جانب الوادي الذي عن يمين موسى، في ذلك المكان المبارك تلك القطعة من الأرض التي هي ليست بهيئة الأرض التي إلى جانبها. وسمع موسى النداء:

- (إني أنا ربك).

فأي سلام غمر موسى، وأي أمان فاض عليه، كاد ينسى كل شيء من حوله، حتى نفسه هو موسى، إلا هذا الصوت القُدسي الحبيب يملؤ روحه، ويغمر نفسه، وعرف موسى أين هو الآن. إنه في هذا المكان المطهر المبارك، إنه بالواد المقدس، وهذا الوادي مسجد مقدس عليه أن يدخله حافيًا بقدمين طاهرتين. فامتثل موسى للأمر فخلع نعليه، ثم اقترب موسى بعد ذلك من النار حافي القدمين فلما وصل إليها سمع نداء جديدا:

﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ النمل: ٨ - ٩

ها هي المهمة الكبرى الجليلة التي كلف الله بها عبده موسى فقد اصطفاه للنبوة. وهكذا تلقى موسى رسالة الله رب العالمين. اقترب من النار أكثر فأكثر، اقترب خاشعا لله، ودنا حافي القدمين، وهو لا يكاد يشعر ببرد

الأرض تحت قدميه، حتى كأنه خلع جسمه كله وأمسى روحا خالصة، وعقلا مفتوحا للنور الالهي. وكان المطر لا يزال ينهمر والريح تعصف. ولما دنا حتى صار على بعد خطوات من الشجرة، رآها على حقيقتها! رأى منظرا هائلا عظيما، حيث رأى النار تضطرم في شجرة خضراء! لا تزداد النار إلا توقدًا، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء. رأى موسى عجبا. كانت شجرة عوسج، خضراء من أدناها إلى أعلاها، تشع منها نار بيضاء. تتقد بغير لهب ولا دخان فكانت نورا أبيض خالصا. فلم يجد موسى فيها شعلة من النار، ولا جمرة ولا شهابا. فما يأخذ من هذه الشجرة ليعود به إلى أهله؟! وفيما موسى على هذه الحالة من الدهش والرجاء فوجئ بالصوت العذب يناديه، فيسمعه مثلما سمعه أول مرة. تلقى موسى هذه التحية من الله رب العالمين، وهو لا يزال واقفا قرب الشجرة تغمره أنوارها وينعم ببركات الله:

- ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ طه: ١٤.

فالتوحيد، توحيد الله أولا، ثم الصلاة، الصلاة لذكر الله ثانيا. ولا تستقيم العلاقة بين الله وعباده إلا بهذين الأمرين. ولا تزال الشجرة تتدفق بالضوء، ولا يزال موسى يقف مذهولا ومسرورا في الوقت نفسه. وأيقن أن الله قد أرسله رسولا إلى بني إسرائيل، لكنه أحس في نفسه بالقلق الخفي وتساءل:

-كيف سيصدقه الناس؟

لا شك في أنهم سيتهمونه بالكذب والجنون؟! فها هو يقف وسط ظلمة الليل، يقف بين يدي ربه، وفيما هو يقلب الأسئلة التي تحيره، قطع النداء الإلهي تفكيره بسؤال، ما كان موسى يتوقعه:

- ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ طه: ١٧

فنظر موسى إلى يده اليمنى، أهناك شيء لا يعرفه؟ لا، لا شيء. فما وجد بيمينه غير عصاه، فأجاب ربه قائلا:

- ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾ طه: ١٨.

إذ يهز بها الشجرة ويضرب الأغصان ليتساقط الورق فترعاه الغنم، فقال موسى:

- ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ طه: ١٨ .

فقال تبارك وتعالى:

- ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ طه: ١٩ .

فنفذ موسى أمر ربه في الحال، فصارت في الحال حية عظيمة، وهو يسمع اصطكاك أنيابها ويرى اتساع فمها كأنه هوة سحيقة، وتتحرك بسرعة مرعبة، لكنها في الوقت نفسه تهتز في حركتها كأنها جان، أي ثعبان خفيف سريع الحركة، ولم يتمالك موسى نفسه ففر هاربا منها، ولم يلتفت إليها، لكن الله سبحانه أرحم وألطف من أن يدع عبده ونبيه موسى نهبا للخوف والذعر، فناداه يطمئنه ويلقي الأمان في نفسه، فدعاه للعودة. لا تخف يا موسى ولا تُرَعْ لأنك بحضرتي، أنا ربك فأنت رسولي، ورسلي الذين أصطفيهم لا يخافون غيري. وأعطاه بدل الخوف أمانا، وفوقه جرأة

وإقداما.

فقال سبحانه وتعالى لموسى:

- ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ طه: ٢١ .

ذهب الخوف عن موسى لشدة يقينه بخطاب الله وصدق وعده، فدفع يده بين فكي الثعبان الشرس، فإذا به يمسك عصاه. أيقن موسى أن الله سبحانه وتعالى أعطاه هذه المعجزة، لتكون آية على صدقه. جاء أمر الهي آخر لموسى، بأن يدخل يده في جيب قميصه، وهي فتحة الثوب التي يدخل منها الرأس. وفعل موسى كما أمر، وأدخل يده في فتحة ثوبه عند صدره ثم أخرجها ونظر فإذا هي تخرج مضيئة منيرة تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق، ولكن من غير أذى فيها ولا برص! بل هي (آية أخرى) أي معجزة ثانية بعد معجزة العصا، يقوي بها الله رسوله الكريم على أداء رسالته. ومع هاتين الآيتين المعجزتين، أعطى الله عبده ورسوله موسى ضمانا دائمًا للأمان من أي خوف. وجاءه الأمر بالتكليف أن يذهب بما معه من الآيات إلى فرعون الذي تكبر وتجبر وجاوز الحد في الطغيان، فقال الله لموسى:

- ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ طه: ٢٤ .

ومن هذه اللحظة صار موسى رسولا.

بينما نحن الستة مستسلمون مُصْغون نسمع من جدتي حكاية سيدنا موسى عليه السلام، قالت إيمان ابنة عمي:

- إن العصا هي معجزة فماذا فعل بها بعد ذلك؟

أجابتها جدتي قائلة:

- سؤال حلو من بنت حلوة.. عندما قابل موسى فرعون ملك مصر وهو يسعى لإقناعه بالتوحيد ويشرح له رسالته التي كلفه الله بها، ورأى فرعون أن موسى قد توغل في عقول الحاضرين، وأثر فيها بحججه وبراهينه، فإن فرعون خاف أشد الخوف، وتوقف عن مجادلة موسى، والتفت وقال لهم ساخرًا:

- ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ٢٧ ﴾ الشعراء: ٢٧ .

وذلك ليمنعهم من الإيمان بموسى، فاضطر فرعون عند هذا إلى تهديد موسى بالسجن الرهيب، ولم يكترث موسى بهذا التهديد أيضا، وظل مستمرا على دعوته بكل لطف ولين، فسأل فرعون:

- هل تترك عزمك على سجني لو جئتك بأمر ظاهر وبرهان قاطع تعرف به صدقي، وقال له:

- ﴿ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴾ الشعراء: ٣٠.

رد فرعون مشككا في قول موسى:

- ﴿ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣١ ﴾ الشعراء: ٣١.

لكن موسى فاجأه، في لحظة خاطفة تحولت العصا اليابسة إلى حية عظيمة، لها فم كبير وشكل هائل، فأقبلت فاتحة فمها نحو فرعون، فصرخ فرعون فزعا، وطلب من موسى أن يأخذها عنه، فأخذها موسى بيده فعادت عصا مرة أخرى. ولكن قبل أن يهدأ فرعون من فزعه، أدخل موسى يده في فتحة ثوبه ثم أخرجها من تحت ثوبه. كانت يده تتلألأ كالشمس

الساطعة، وشعاعها يكاد يخطف الأبصار، فذهل فرعون وأشراف قومه الحاضرون. وارتعب فرعون مما رأى. فأمر موسى وأخاه هارون بالانصراف. فغادرا القصر واثقين منتصرين. اختلى فرعون بحاشيته وأتباعه، وفيهم هامان وزير فرعون، فقال لأتباعه:

- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ غافر: ٢٦.

لكن أتباعه لم يوافقوه في الحال على قراره المفاجئ. فتشاور القوم في هذا الاقتراح، فأيدوا فرعون كلهم، لكنهم فوجئوا بحزقيل خازنه يعترض على ما أجمعوا عليه. وكان حزقيل محبا لموسى مشفقًا عليه. فقال للقوم:

- موسى لم يرتكب جرما يستحق القصاص بالقتل. بل هو دعاكم للإيمان بالله وحده وقدم لهم على ذلك أصدق برهان بيده البيضاء. ومن قبلها العصا التي تحولت إلى ثعبان. لكن فرعون عارض حزقيل فيما قال".

قلت لجدتي:

- وإلى هذا الحد انتهت معجزة العصا الحية مع فرعون وأعوانه؟

ردت جدتي وهي ما زالت تحدثنا بنشاط وهمة ودون توقف وقالت:

- "كلا. لكن هناك الأعجب والأغرب. لأن فرعون في حيرة شديدة وورطة أشد! موسى صار يؤرق عليه حياته وراح يفكر ما سيفعله تجاه موسى وأقواله، فوجد جوابا ارتاح له الارتياح كله، فقال: إنه السحر، إن موسى ساحر لا أكثر، ولا يقهر السحر إلا بالسحر، فإذا تغلب السحرة على سحر موسى بسحرهم، فلن يبقى له تأثير في أحد.

اشتد فرعون في طلب موسى، فلما جاءه قال فرعون:

- ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ طه: ٥٧ - ٥٨.

واختار فرعون يوما محددًا وكان عيدا لهم، فحدد لهم موسى ضحى ذلك اليوم، يوم الزينة، وكانوا يلبسون فيه أنواع الزينة ويسمونه عيد وفاء النيل، وكان أعظم أعيادهم. لقد عين موسى ذلك اليوم وقتا للمبارزة، ليظهر الحق ويزهق الباطل، أمام الناس الحاضرين جميعا، فجاءوا بجمهور عظيم من السحرة في اليوم المتفق عليه، وكانوا مدلين بأنفسهم واثقين من مقدرتهم على السحر والتصرف في العيون والأعيان. وسأل السحرة فرعون:

-هل تكرمنا بالمال والأجر الجزيل؟

فأجابهم فرعون إلى ما أرادوا ووعدهم أن يجعلهم من المقربين عنده ومن خاصة جلسائه. وهكذا اجتمع السحرة لدى فرعون وكانوا اثنين وسبعين ساحرا، ومع كل ساحر منهم حبال وعصي. وأقام لهم الولائم وأعد لهم كل ما يطلبون. ثم حان يوم الزينة وكان الوقت ضحى. وأقبل الناس من كل أرجاء مصر بعد أن راح أتباع فرعون ينادون بالناس ليبادروا إلى الاجتماع. وكان جميع الناس ينتظرون ما لا يعلمون. وفجأة أقبل موسى على السحرة، وقال لهم بصوت غاضب قوي فيه تحذير شديد، فنصح لهم وأنذرهم. حذرهم موسى بأنهم إذا رأوا آياته ومعجزاته الحقيقية يجب ألايقولوا: إنها سحر فيصيبهم من الله عذاب عظيم. فإن الكذاب على الله خائب وخاسر. وفي لحظة خاطفة ألقى السحرة المتمرسون الحاذقون المتفنون بالسحر، ألقوا كل ما في أيديهم من الحبال والعصي على الأرض

وهم يقولون:

- ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ الشعراء: ٤٤.

وإذا بالميدان الفسيح يمتلئ بآلاف الأفاعي والحيات والثعابين تتلوى وتتقافز ويركب بعضها بعضا، وتتموج كأنها سيل مندفع! فاهتزت القلوب وفزعت النفوس، وتعالت شهقات الهلع، وعم الذعر والجزع، وفي تلك اللحظة ابتهج فرعون وجنوده وعلية قومه وأيقنوا أن السحرة قد نجحوا، وحتى موسى نفسه أصابه هذا التخيل. لقد أحس بالخوف في نفسه، لأنه رأى شيئا هائلا. وفي الحال أوحى الله له في تلك الساعة الراهنة:

- ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ طه: ٦٨.

ثم أمره الله سبحانه أن يلقي بعصاه!! فألقاها فإذا هي تنقلب ثعبانا أسود يمشي على أربع قوائم قصيرة غليظة شديدة وله ذنب ضخم يستند عليه فيشرف على جدران المدينة برأسه وعنقه، وعيناه تلتهبان نارًا، وله فم واسع.

وقد أخذنا العجب جميعًا، وقالت ذكرى:

- وبعد أن تحولت العصا إلى أفعى كبيرة ماذا حصل لباقي الأفاعي التي جاء بها سحرة فرعون؟

أجابت:

- في الحال انطلق الثعبان نحو الحبال والعصي، التي لا يزال فرعون والحاضرون يتخيلون أنها ثعابين تسعى، فأخذ الثعبان يتلقفها ويبتلعها ابتلاعا، فتسقط في جوفه ولها صوت، وما هي إلا لحظات حتى لم يبق شيء منها. خلت الساحة، فلا ثعابين ولا عصي ولا حبال. امتلأت قلوب الجمع

المحتشد رعبا، وهزم قوم فرعون، فولوا هاربين مذعورين، وهم ينقلبون بعضهم فوق بعض، فيدوسه حتى مات في ذلك التزاحم عدد كبير من الناس، أما فرعون فكاد قلبه ينخلع من الرعب والخيبة التي لم يتوقعها قط. وأما السحرة فكانوا هم أكثر الحاضرين ذهولا وتأثرا وتعجبا من هذا الذي يجري أمامهم. لكن هذا الذي أبصروه لم يكن سحرًا ولا شعوذة. بل هو حقيقة لا شك فيها ولا تمويه ولا خداع ولا تخيل. ذهل السحرة وخشعوا. نعم لقد آمنوا برب موسى. فقد قامت المعجزة واتضح لهم البرهان، ووقع الحق وبطل السحر. وهكذا كانوا أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء بررة. ظل السحرة ساجدين أمام أنظار فرعون. وفي الحال أصدر فرعون حكمه على السحرة الذين آمنوا برب العالمين، فقال:

- ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾ طه: ٧١ .

قالوا له: لا ضرر علينا من تهديدك المرعب، فما أشد ثقتهم بربهم! وأكدوا لفرعون أنه إذا قتلهم فسيعودون إلى الله شهداء كراما بررة.

وبدأ فرعون بتنفيذ تهديده لمن آمنوا بموسى.

وسيق السحرة المؤمنون مكبلين مقيدين إلى حيث ينفذ فيهم حكم فرعون. فأخذ أعوان فرعون يقطعون أيدي بعض المؤمنين اليمنى مع أرجلهم اليسرى، ثم يصلبونهم على جذوع النخل حتى يموتوا نزفا. وكان فرعون يتوقع أن يكون هذا العقاب الوحشي رادعًا لبقية المؤمنين. لكن

إيمان السحرة كان أصلب مما توقع فرعون. وازداد فرعون طغيانا وعنادا. ثم راح يقتل ويذبح الأبناء الذكور ويعذب قوم موسى ويستحيي النساء للاستخدام. فضج قوم موسى بالشكوى مما حل بهم من ظلم وبطش وتنكيل، فوصاهم بالصبر على هذا البلاء العظيم. كان إيمان السحرة المفاجئ نصرا عظيما من الله لموسى. لكن فرعون تجبر وتكبر، وازداد كفرا وعنادا".

مضى الليل سريعا كلمح البصر لم نحس لا بالساعات ولا بالدقائق التي انقضت من زمن هذه الليلة ونحن نسمع حكاية عصا موسى عليه. وتسلل النعاس إلى جفني جدتي المثقلتين بالتعب من سرد الحكاية وأخذت تتثاءب وتوقفت عن الكلام.

قلنا لها جميعا وبصوت واحد:

- أطال الله عمرك يا جدتنا الحنون. وكنت أنا الأخيرة من بينهم ثم وضعت (اللحاف) فوق جدتي وهمست بأذنها قائلة:

- تصبحين على الخير والعافية والصحة الدائمة.. لكن يجب أن تعديني غدا بعد صلاة الجمعة بأن تحكي لنا خامسًا من اللغز.

انزعجت مني جدتي وأرادت أن تصرخ بي، لكنني كممت فمها وقبلتها قبلتين وخرجت مسرعة وغلقت باب الغرفة بسرعة كي لا يسمعني أحد.

(قبل ظهر الجمعة)

عند شروق شمس اليوم التالي، استيقظت الشمس من نومها مبتسمة لتعلن عن يوم جديد، صباحًا حيث استيقظت من نومي ومعي بنات عمي ذكرى ومنى ثم تبعتنا بعد قليل إيمان، كان شقيقاي أزهر وأخي الصغير أيمن وابن عمي ذاكر، قد استيقظوا بكل نشاطٍ وحيوية لم يألفوها من قبل لا أدري ما هو السبب. وكانت أمي قد هيأت لنا الإفطار، الذي كان يختلف عن إفطار أيام الأسبوع الأخرى، وذلك لسببين أولهما أننا نتجمع سويا في كل يوم جمعة، والسبب الثاني هو: (لأن يوم الجمعة له خصوصية في مدينتي، وعند المسلمين عمومًا). ففيه تواصل الأرحام من خلال زيارات البعض للبعض، وقراءة القرآن الكريم، والذهاب إلى الجامع لأداء صلاة الجمعة. ففي صباح هذا اليوم حدث حركة ملؤها بركة، حيث أخذ يتهيأ أبي وعمي منير وأخواي أزهر وأيمن وابن عمي ذاكر للذهاب مبكرين إلى الجامع لأداء صلاة الجمعة. أما أمي وزوجة عمي فأخذتا تعدان لنا الطعام المفضل لكل عائلة موصلية في مثل هذا اليوم من طعام (الدولمة) و(كبة البرغل). أما أنا وبنتا عمي ذكرى وإيمان فقد جلسنا قرب جدتي التي قد أمسكت بالقرآن الكريم وبدأت بقراءة سورة مما تيسر لها، قالت لنا:

- اسمعن يا بناتي الحلوات، عليكن أن تقرأن سورة (الكهف)، لأنه يفضل قراءتها في يوم الجمعة.

قلنا بصوت واحد:

- لماذا يا جدتنا الغالية؟

ردت بالقول:

- لأن سورة الكهف تشمل: ٤ قصص! ٤ فتن! ٤ قوارب نجاة!

ازددنا ذهولًا وأخذت كل واحدة منا تنظر إلى الأخرى لما سمعناه من حديث جدتي، ولم أستطع الانتظار إلا وأنا أقول:

- أربعة في أربعة في أربعة! أوضحي لنا أكثر يا جدتي.

بكل رضا وبهجة أجابتني قائلة:

- لأنه ورد فيها قصة أصحاب الجنتين (البستان) أي فتنة المال! وقصة أصحاب الكهف، فتنة الدين! وقصة سيدنا موسى والخضر، فتنة العلم! وقصة ذي القرنين مع يأجوج ومأجوج، فتنة السلطة!

وفي الحال نهضت وجلبت لكل واحدة القرآن الكريم وجلسنا معًا نقرأ سورة (الكهف)، فقد امتلأت قلوبنا بإيمان عميق. وبعد أن انتهينا من قراءة سورة (الكهف) كنا لانحتمل الانتظار حتى لو بضع دقائق حتى نسمع تلك الحكايات من جدتي، لكن إيمان قالت لجدتي:

- والآن جاء دورك لتقص لنا كل حكاية على حدة.

أما أنا فقلت:

- أرغب بمعرفة قارب النجاة لكل قصة.

أجابت على أسئلتنا وهي منشرحة الصدر:

- بكل سرور يا إيمان. وأنت يا مريومة كثيرة التساؤلات. الحكاية الأولى التي وردت في السورة عن الأخوين الشقيقين اللذين ورثا عن أبيهما مالا غير قليل، فأخذ كل منهما نصيبه. وكان أحد الشقيقين مؤمنًا بالله يحبه ويخشاه، فأخذ ينفق ماله في كل ما يرضى الله، حتى نفد ماله كله وهو فرح

بذلك برغم أنه أصبح فقيرًا، أما شقيقه فكان كافرًا، أخذ ماله كله واشترى به بستانين لثمار العنب، وقد وسع الله نعمته على الكافر الغني البطر، فجعل بستانيه يزهوان بكل الثمار والأعناب وأحاطهما بسياج من نخيل باسقات. ولم يكن لصاحب البستانين هذا الخير وحده بل كانت له أموال كثيرة أخرى غيرها.

ونظر هذا الغني إلى بستانيه ذات يوم فطفحت نفسه بالغرور فاستعلى على أخيه وطغى: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ الكهف: ٣٤ .

ثم أخذ بيد أخيه المؤمن. وحين نظر إلى بستانه أذهله العجب حتى راح يصفه كأنه جنته الخالدة لا تزول، ثم خيل له أن الخلود هو هنا في هذه الحديقة التي ظنها لا تفنى أبدًا، فراح ينكر يوم القيامة جهرةً ولا يتوقع قيامها فقال:

- ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ الكهف: ٣٥.

أي جحود هذا وأي طغيان، فراح يزعم أنه لو رجع إلى الله يوم القيامة إذا كانت هناك قيامة - حسب ظنه - فسوف يعطيه الله خيرا من جنتيه. فرد عليه أخوه المؤمن:

- ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ الكهف: ٣٧ .

والآن جاء دور الأخ المؤمن ليفخر هو أيضا، يفخر فخرًا حقيقيا لا غرور فيه ولا طغيان، بل كله تواضع وإيمان فقال:

- ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ الكهف: ٣٨ .

هذا هو الفخر الصادق أن تكون عبدا لله خالق كل شيء لا أن تعبد وثنا أو حديقة أو مالا! ثم أقبل على أخيه الكافر يحثه على الإيمان بالله وشكر نعمته، ولم يستنكف المؤمن من فقره وقلة ماله وولده ما دام مؤمنا بربه ويرجو رحمته. وراح يحذره من عقاب الله كل تحذير، وخوفه من أن يرسل الله آفات من الأرض أو صواعق من السماء على بستانيه. ولم يجب الكافر أخاه بكلمة واحدة كأنه لم يسمع منه شيئًا. ولكن.. فجأة حل الدمار بجنة الكافر وأحيط بثمره، فتلفت ثمارها، وتحطمت زروعها الزاهية، ووقعت المصيبة الفاجعة بالكافر. فحطمت غروره مثلما حطمت جنته وزروعه، ونظر إليها فإذا هي خراب فوق خراب. إنه الآن يضرب كفا بكف أسفًا وندما وحسرة، وجنته أمامه محطمة، ولم يجد أمامه غير الندم فراح يتفجع ويتوجع ويقول:

- ﴿ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾ الكهف: ٤٢ .

وها هو الكافر وحيدًا، لا مال يغنيه، ولا جماعة تنصره وتدفع عنه البلاء، ولم يمنع هو انتقام الله من النزول به. وقارب النجاة منها معرفة حقيقة الدنيا.

بعد أن انتهت جدتي من سرد حكاية الشقيقين، قالت إيمان متسائلة:

- وما هو الاستدلال من تلك الحكاية يا جدتي؟

- أجابتها:

- قصة رجل أنعم الله عليه فنسي وأهان النعمة فطغى وتجرأ على ثوابت الإيمان بالطعن والشك ولم يحسن شكر النعمة رغم تذكير صاحبه له بهلاك الزرع والثمر.. الندم حيث لا ينفع الندم !

ذكرى لم تعط مجالًا لجدتي، حتى طلبت منها قائلة:

- وحكاية أصحاب الكهف.

- أجل، أصحاب الكهف. هم من أهل (أفسوس) يتزاحمون على أصنامهم يعبدونها، يوم كأنه عيد، وهي بلد بثغر (طرطوس) المدينة الشهيرة بآسيا الصغرى وهي من بلاد الروم. ولكن برغم كل هذا العيد، ما بال ذلك الفتى منعزلا حزينا، لا يكاد يشعر بما يجري حوله من عيد شُغل الناس فيه أي انشغال، كان جالس معتزلا تحت شجرة ظليلة لا يكاد يلتفت إليه أحد من الناس، وبعد حين أقبل عليه فتى أشبه به مظهرا وصفة! إذ كان مثله ضجرا سئما، فجلس عند صاحبه وراحا يتحدثان بهمس حديثا جادا، كأنهما يأتمران بشيء لا يريدان لأحد من الناس أن يطلع عليه، وكان الواحد منهما يشير بين آن وآن إلى أحد الأوثان، وكأنه يرجمه بيده بحركة غاضبة هي أشد وقعا على الوثن مما لو كانت حجرا أصابه. وفيما يزداد عيد أهل أفسوس صخبا وبهجة واضطرابا، كان الفتية يزدادون تحت الشجرة الظليلة حتى صاروا سبعة من الفتية الأشداء في أجسامهم والمنكرين لما يرون أمامهم إنكارا. فملك الإيمان كل نفوسهم وأضيئت بنور التوحيد، فاستراحت نفوسهم واطمأنت قلوبهم واتفقت كلمتهم على أن يفارقوا دين قومهم ويكفروا بآلهتهم التي لا تضر ولا تنفع. هذه الآلهة التي كان ملك البلدة الكافر الجبار (دقيانوس) يدعو الناس إلى عبادتها، ويقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته، فاشتد بذلك البلاء على أهل الإيمان، ومنهم هؤلاء الفتية البسلاء الشجعان، الذين كتموا أمرهم بينهم وفارقوا ما يعبد قومهم، لكن خبرهم وصل إلى سمع الملك دقيانوس، فهاج وماج، وتوعدهم

بالشر المستطير، وأمر جنوده بالقبض عليهم، فجيء بهم إلى الملك الكافر، فخاطبهم قائلا:

- سأمهلكم زمنا قليلا حتى تعودوا إلى عبادة أصنامنا، وتذبحوا للطواغيت، وتتركوا ما أنتم عليه من دين. ولن أعجل لكم العقوبة لأنني أعرف جيدا أنكم من أشراف القوم وأعيان الرعية.

لكنهم أجابوه بغير ما أراد، وما أطالوا الحديث معه ولا اكترثوا بتهديده، بل أعلنوا له عقيدتهم الواضحة ودينهم الحق وقالوا:

- ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ﴾ الكهف: ١٤.

ثم عابوا على قومهم وأهل بلدهم عبادتهم الأصنام. ذهل الملك مما سمع، لكنه لم يستطع أن يتراجع عما وعدهم، فتظاهر بالحلم، وقلبه يجيش عليهم حقدا وغلا، فقال لهم:

- إنكم فتيان حديثة أسنانكم، أي أعماركم، وقد أخرتكم إلى الغد لتروا رأيكم.

فلما خرجوا من عنده، جلسوا يتشاورون بعيدا عن أعين الرقباء، فأجمعوا أمرهم على أن يعتزلوا قومهم ويفروا بدينهم ويلتجئوا إلى كهف يعرفونه في بعض الجبال. فذهب كل واحد منهم إلى بيته وعاد يحمل ما استطاع حمله من مال وطعام ومتاع، فهربوا في ساعة من الليل، وتوجهوا تلقاء ذلك الجبل، وفي أثناء فرارهم مروا براعٍ معه كلب، فتبعهم الكلب وسار في أثرهم وتعلق بهم. فلما بلغوا الكهف، واستقروا فيه واستراحوا من عناء الطريق الطويل الذي قطعوه، جلسوا يأكلون مما أحضروه معهم من طعام. ثم قاموا يصلون لله خاشعين. وأقبلوا على ربهم يدعونه ضارعين. ثم

ألقوا بأجسادهم إلى الأرض متعبين مرهقين فأسلموا رؤوسهم إلى الأرض فألقى الله سبحانه عليهم النوم الثقيل في الكهف سنين عديدة. ومرت تلك السنون وهم على ما هم فيه من نوم، فلا تزعجهم زمجرة الرياح، ولا يوقظهم قصف الرعود، هؤلاء الفتية وهم في نومتهم، لا ينالهم حر الشمس، برغم أنها كانت تنفذ إلى كهفهم! لأنها كانت تميل عن كهفهم جهة يمين الكهف، فلا يصيبهم حرها وأشعتها المباشرة، لكنها في الوقت نفسه تدفئ الكهف وتضيئه ضوءا لطيفا شفيفًا، فلو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم، ولو أنهم لا يتقلبون لأكلتهم الأرض. فالله سبحانه بلطفه وكرمه، يقلبهم من جانب إلى جانب لئلا تأكل الأرض أجسامهم، ثم هذا هو كلبهم الذي تبعهم قد أخذه من النوم ما أخذهم، لأنه أحبهم وصاحبهم.

توقف الزمن بالنسبة لهؤلاء الفتية، ثلاثة قرون وتسع سنوات! وهذه التسع من السنوات هي فرق السنوات الهجرية والميلادية الثلاث مئة، وبهذا ذكر الله مدة نومهم بالتاريخ الميلادي والهجري بدون زيادة يوم ولا نقص في تلك السنين التي نام الفتية فيها. بقيت أجسامهم على حالها. لم يمتد لهم شعر، ولم يطل ظفر، ولم تتغير خلية في أجسادهم، ولم يبل ثوب لهم. فقد توقف الزمن تماما.

وبعد تلك الرقدة الطويلة بعث الله الفتية السبعة وأيقظهم، فجلسوا يتحاورون، وراح بعضهم يسأل بعضا عن المدة التي مكثوها في الكهف نائمين. سأل أحدهم أصحابه:

- (كم لبثتم)؟

فأجابوه قائلين:

- (لبثنا يوما أو بعض يوم).

لقد أجابوا بهذا الجواب لأنهم وجدوا أنفسهم على حالهم التي كانوا عليها ساعة من النوم، لم يتغير فيهم شيء، وكذلك فإنهم دخلوا الكهف صباحا، وبعثهم الله في آخر النهار، فلما استيقظوا ظنوا أن الشمس قد غربت فقالوا: (لبثنا يومًا). ثم لما رأوها لم تغرب بعد، قالوا: (أو بعض يومٍ). وما دروا أنهم ناموا ثلاث مئة سنين وتسعا. وقال الباقون:

- (ربكم أعلم بما لبثتم).

وكان الجوع قد نال منهم، فرأوا أن لا طائل وراء البحث عن مدة إقامتهم في الكهف، لذلك أقبلوا يتحدثون بشأن الطعام ليسكتوا جوعهم. فأقبلوا على أصغرهم واسمه (يمليخا) وهو خازن أموالهم، وطلبوا منه أن يأخذ معه نقودهم الفضية (الورق) ويذهب إلى المدينة، المدينة ذاتها التي خرجوا منها فرارًا بدينهم، ثم أوصوه أن يختار لهم أحل الطعام وأطيبه، فيشتري لهم منها. ثم أوصى الفتية صاحبهم (يمليخا) وهو يوشك أن يغادر الكهف بأمر لا يقل عن جلب الطعام أهمية لهم، فطلبوا منه أن يدخل المدينة متنكرا وأن يتعامل مع الناس بتلطف ولين جانب، وذلك لكي لا يعرفه أحد من أتباع الملك دقيانوس فيشي بأمرهم إليه.

وخرج يمليخيا إلى المدينة يلتمس الطعام وهو خائف وحذر ودخل مدينة أفسوس فراعهُ تغير معالمها وتبدل أحوالها، فالخرائب أصبحت قصورا، والقصور أمست خرائب وأطلالا. وهذه الوجوه التي يراها الآن، بدت له غريبة عليه ولم يألفها، فبدا عليه الاضطراب، حتى لفت إليه أنظار

أهل المدينة، فسأله أحدهم:

- أغريب أنت عن هذا البلد؟

قال يمليخا:

- أنا لست غريبًا، ولكني أبحث عن طعام كي أشتريه، ولا أعرف من أين؟!

فأخذ الرجل بيده حتى انتهى به إلى صاحب الطعام، وهنا أخرج يمليخا دراهمه فدفعها إلى صاحب الطعام. فدهش هذا لما رأى هذه الدراهم وعليها صورة دقيانوس وتاريخ حكمه. فأخذ البائع يقلب النقود في كفه مذهولا وهو يظن أن يمليخا قد عثر على كنز، فسأله:

- من أين حصلت على هذه النقود؟

فاجتمع الناس حوله، وأخذوا ينظرون إلى تلك النقود يتفحصونها ويعجبون، ثم قالوا له:

- من أنت يا فتى لعلك وجدت كنزا؟!

فقال:

- لا والله! ما وجدت كنزا إنها دراهم قومي! ثم راح يؤكد لهم فقال: لقد كنا فتية وأكرهنا الملك على عبادة الأوثان، فهربنا منه عشية أمس، فآوينا إلى الكهف، أرسلني أصحابي اليوم لأشتري لهم طعامًا.

وبعد حوار بينه وبين الناس، فهموا حقيقة أمره، أنه واحد من الفتية الأشراف الذين اختفوا وفقدوا منذ أيام دقيانوس قبل ثلاث مئة سنة وتسع. وكان أهل أفسوس قد تناقلوا قصتهم وتوارثوها جيلا بعد جيل، لأن أمر اختفائهم بقي لغزا محيرا من الألغاز. خاف يمليخا على نفسه وعلى

أصحابه انكشاف أمرهم، وخشي وصول خبرهم إلى الملك دقيانوس، فأسرع الجميع وطمأنوا يمليخا وقالوا له:

- لا تخف، ولا تُرَع، فالملك الذي تخافه قد مات منذ ثلاث مئة سنة.

ثم زادوه اطمئنانا وأمانا حينما أخبروه أن الملك الذي يجلس الآن على العرش هو ملك مؤمن بالله كما تؤمنون. عند هذا أدرك يمليخا حقيقة ما حدث. وشاع خبر يمليخا وانتشر حتى وصل إلى (آريوس) حاكم أفسوس من قبل الملك (تيذوسيس) فأرسل في طلب يمليخا. فلما حضر يمليخا سمع من قصته نبأ عجيبًا، ورأى عليها برهانا بينا، فلم يستطع أن يصدقه كل تصديق، فأطلق سراحه، فقال لهم يمليخا مؤكدا واثقًا:

- انطلقوا معي إلى الكهف لأريكم أصحابي.

فاصطحب آريوس مجموعة من وجهاء المدينة وكثيرًا من أهلها، ومضوا إلى الكهف ومعهم مضى يمليخا، فرأوا الحقيقة بأم أعينهم، وقد رأوا عجبًا، فهؤلاء الفتية في أعمارهم نفسها، ولكن ثيابهم وحاجاتهم تعود إلى أزمان قديمة منذ ثلاث مئة سنة. وأرسل آريوس إلى ملكه الصالح تيذوسيس يخبره بحكاية هذه الآية الربانية العجيبة. ثم سرعان ما حضر الملك بنفسه، وتوجه إلى الفتية في كهفهم، فلما دخل عليهم رآهم يصلون. فلما انتهوا من صلاتهم، تقدم الملك نحو الفتية في رهبة وخشوع، فعانقهم وقبلهم، فدعى له الفتية بالرعاية والتوفيق. ثم ألقى الله عليهم النوم، بعد أن عادوا إلى مضاجعهم. فأماتهم الله سبحانه. فألقى الملك عليهم ثيابه. وهكذا بعثهم الله من نومهم فإنه سبحانه أطلع الناس على حكايتهم، وذلك لكي يستدلوا بما رأوا على صحة البعث ويوقنوا أن القيامة لا شك فيها،

فتكون قصة أصحاب الكهف حجة واضحة ودلالة قاطعة على إمكان البعث والنشور، فإن القادر على بعث أهل الكهف من نومهم بعد ثلاث مئة سنة قادر على بعث الخلق بعد مماتهم. ولا يزال الكهف معروفا إلى اليوم في أرض الأردن.. أما قارب النجاة منها فكان الصحبةَ الصالحة.

وما الاستدلال من هذه الحكاية يا جدتي؟ قلت لها. فقالت:

- فتنة الدين، قصة شباب مؤمنين كانوا يعيشون في بلدة كافرة فعزموا على الهجرة والفرار بدينهم بعد مواجهة بينهم وبين قومهم. كافأهم الله برحمة الكهف ورعاية الشمس، استيقظوا فوجودوا القرية مؤمنة كلها. واستدلال آخر للناس في ذلك الزمان بما رأوا على صحة البعث فيوقنون أن القيامة لا شك فيها، فتكون قصة أهل الكهف حجة واضحة ودلالة قاطعة على امكان البعث والنشور! فإن القادر على بعث أهل الكهف من نومهم بعد ثلاث مئة سنة وتسع سنوات قادر على بعث الخلق بعد مماتهم.

ما هذه التسع سنوات؟ قالت ذكرى لجدتي، فأجابتها:

- هي فرق السنوات الهجرية عن الميلادية الثلاثة مئة. وبهذا ذكر الله مدة نومهم بالتاريخ الميلادي والهجري بدون زيادة يوم ولا نقص في كل تلك السنين التي نام فيها الفتية منها، بقيت أجسامهم على حالها، لم يمتد لهم شعر، ولم يطل ظُفر، ولم تتغير خلية في أجسادهم ولم يبل ثوب لهم. فقد توقف الزمن!

ما زالت ذكرى تسأل جدتي سؤالا يتلوه سؤال، فكان سؤالها الأخير:

- فقط هذه القصة التي وردت في القرآن عن موت الإنسان ثم إعادته للحياة مرة أخرى لينظر الناس إلى قدرة الله العظيمة على الخلق والموت والحياة في تلك الحقب الزمنية؟

ردت عليها جدتي:

- لا، فهناك العزير الميت الحي!

اهتزت قلوبنا، وفزعت نفوسنا، وتعالت شهقات الهلع بيننا نحن الثلاثة، حتى قلت لجدتي:

- ميت حي؟!

- أجل. بعد ما أصاب بني إسرائيل ما أصابهم على يد بختنصر ملك بابل، خرج (عزير بن شرحياء) ذات يوم سائحا في الأرض، وكان عبدا صالحا حكيما، وفيما هو على ظهر حماره، ومعه سلة فيها تين وزق فيه عصير عنب، وقليل من الخبز، مر على قرية (سدوم) الملعونة في الأردن قرية نبي الله لوط. وحين تأملها وجد أنها قد سقطت جدرانها على سقوفها، فتفكر في شأنها، وهو يرى الموت يلفها لفا، ولا أثر للحياة فيها! فتساءل متعجبا وقال مع نفسه:

- ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ البقرة: ٢٥٩ .

لم يتساءل عزير عن شك في قدرة الله سبحانه، ولكنه قال ذلك تعجبًا من حال تلك المدينة الخربة الخاوية المدمرة، ولما أراد الانصراف ركب حماره، فانكفأ به الحمار، وخرا ميتين كلاهما عُزير وحماره، وكان الوقت ضحى، واستمر عزير ميتا مئة عام. الله سبحانه أحياه بعد موته ونظر عزير

فرأى جبريل واقفا أمامه فسأله جبريل:

- كم لبثت على هذه الحال؟

فرد عزير قائلا:

- (لَبِثْتُ يَوْمًا).

وحانت منه التفاتة إلى قرص الشمس فرآه يميل نحو الغروب ولم تغب بعد، فاستدرك وأضاف قائلا:

- (أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ).

فقال له جبريل:

- (قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ).

يا لهذه المفاجأة المذهلة! وجلس عزير يتأمل ما يرى، ويفكر فيما سمع من جبريل، فنظر عزير إلى طعامه من تين وخبز، فوجده على حاله كما أحضره أول مرة، فلم يتغير طعم زاده وشرابه، ولا رائحتهما. ومع هذا فإن طيفًا من الحيرة والتعجب ربما كانا يلامسان قلب عزير وعقله، وكأنه أنكر في قلبه ما سمع، فقال له جبريل:

- ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾.

فنظر عزير إلى حماره، وما أعجب ما رأى، لقد وجد حماره قد صار هيكلًا عظميا متفرقًا، لأن الزمن جرى عليه، فبلي وصار عظاما نخرة. لكن جبريل عليه السلام قال له:

- (وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا).

انظر يا عزير إلى عظام حمارك كيف نجمعها. فنادى جبريل عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحية حتى ركبه، وعزير ينظر. ثم قال جبريل لعُزير:

- (ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا).

فرأى عزير اللحم يترجرج بدءًا من الحوافر، زاحفا يكسو الأرجل والبطن والظهر والعنق ثم الرأس، وذلك بعد أن ألبسها العروق والعصب، ثم أنبت على اللحم الجلد والشعر، ثم استوى الحمار قائما حيا.

ذهل عزير لما رأى وما أعجب ما رأى، لقد رأى الحياة تعود للعظام الميتة البالية، رأى بأم عينيه معجزة الخلق. فتذكر قوله متسائلا حين رأى القرية المدمرة، وهي ركام من حجارة وعظام:

- ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ ﴾

فخشع قلبه، فخر ساجدا في مكانه، ثم ركب عزير حماره، وحمل زاده وشرابه، وعاد من حيث أتى. ومن بعيد رأى الناس رجلا يركب حمارا، قادما من طريق القرية (سدوم). ولم يروا إنسانا قبل هذا اليوم يأتي من هذه الطريق، فتجمعوا مذهولين خائفين، حتى وصل إليهم، فكلمهم وكلموه. وقال لهم:

- (أنا عزير).

فكذبوه فأخذ يقرأ التوراة عليهم عن ظهر قلب، وهم ينظرون فيها، لأن الله قد محاها من قلوبهم، بعد أن نقضوا عهودهم وقتلوا أنبياءهم، وبعد أن عثروا على التوراة التي كانت مدفونة في الجبال خوفا عليها من السبي البابلي أيقنوا أن علم عُزير بالتوراة صحيح وأنه لم يخطئ في حرف

واحد منها، فصدقوا به، لكنهم تطرفوا في تصورهم تطرفا أخرجهم إلى الكفر! فقالوا: ما كان ذلك يتأتى لعزير لو لم يكن هو ابن الله.

- ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣٠.

ابنة عمي منى التي لم نسمع منها أي سؤال طيلة هذا الزمن التي الذي كانت جدتي تحكي لنا فيه عن القصص التي وردت في سورة الكهف، على حين غرة قالت:

- ألا توجد حكاية أُخرى عن الكهف يا جدتي؟

ردت عليها بكلمة نعم، ثم واصلت حديثها:

- نعم هناك. إلياس عليه السلام، لقد ظن أهل القرية بصنمهم (بعل) كل ضلال، لأنهم اتخذوه إلها يعبدونه وربا يرجونه ويتوسلونه. فتراهم يقدمون إليه القرابين والنذور، ويسعون إليه بمرضاهم راجين منه لهم الشفاء. وكان أهل القرية يرون أن صنمهم (بعلا) لا يجلب لهم خيرا ولا يدفع عنهم شرا، لكنهم يصرون على عبادته إصرارا بعد أن زين إليهم الشيطان سوء ظنهم فرأوه حسنا! وباسم هذا الصنم (بعل) سميت مدينتهم (بعلبك) بالشام. وشاء الله أن ينقذ أهل هذه القرية من ضلالها البعيد، أرسل إليهم نبيا هو (إلياس) فأقبل على قومه يبلغهم رسالة ربه وخوفهم من الله لأنهم يعبدون غيره. وراح إلياس ينكر على قومه عبادتهم الصنم الأصم، وتركهم عبادة الله، وذكر إلياس قومه بالله، فقال لهم:

- ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ الصافات: ١٢٥ - ١٢٦ .

لكن أكثر القوم لم يصدقوه ولم يؤمنوا به. ولم يكتف المكذبون من تكذيبه بل إنهم عزموا على قتله فهرب منهم واختفى عنهم وانطلق فارا من قومه حتى لجأ إلى كهف في جبل فأقام فيه بضع عشرات من الليالي، وحيدا تغمره رحمة ربه، ويفيض عليه لطفه، فكانت الغربان تأتيه برزقه، ولما أدى إلياس رسالة ربه إلى قومه، أكرمه الله خير إكرام، فأثنى عليه ثناء حسنا يجري على لسان من يأتي بعده إلى يوم الدين.

كان شعورنا ممزوجًا بين الدهشة والاستغراب في أن واحد. وقلت في نفسي:

(يجب أن أعرف ما تبقى من حكاية النبي موسى والعبد الصالح) .. عذرا جدتي قد أخذنا اليوم من وقتك الكثير، لذا نريد أن نسمع منك حكاية النبي موسى والعبد الصالح؟

- سار موسى وفتاه يوشع ومعهما المكتل وهما لا يدريان كم يطول سيرهما. وطال بهما السير. وكلما أدركهما التعب، جلسا يستريحان ساعة من الزمان. وفي ليلة من الليالي المقمرة وحين كانا يجلسان عند صخرة على شاطئ البحر، نام موسى فبقي يوشع إلى جانبه يحرسه، وفجأة سمع حركة تصدر من المكتل، وحين تفحصه وجد السمكة (أو الحوت) حية قد دبت فيها الحياة، ثم سرعان ما قفزت إلى البحر، وغاصت في الماء. لكن الماء بقي مفتوحًا وكأنه نفق طويل خلف السمكة وجمد الماء. استيقظ موسى وسار مع فتاه بحثا عن المعلم الذي أخبره عنه الله، وسارا ليلة وجزءا من النهار، فقطعا مسافة طويلة وحين أدركهما التعب والجوع، طلب موسى الطعام أي السمكة، فقال يوشع الذي كان قد نسي أن يخبر موسى بأمر السمكة

العجيبة، وتذكره الآن، وأخبره ما حدث للسمكة عندما نام، فرح موسى بهذا الكلام، فقال ليوشع:

- فذلك إذن هو المكان الذي حدده جبريل لموسى للقاء العبد الصالح، فعاد موسى ويوشع إلى المكان نفسه عند الصخرة ونظرا فرأيا عجبا! رأيا طريق الحوت لا يزال على حاله منكشفا وقد تجمد الماء على جانبيه. فسار موسى على الطريق نفسها التي سارت فيها السمكة، لكن الماء صار يلتئم خلفه مباشرة، بحيث سد الطريق أمام يوشع، فبقي واقفًا في مكانه على الشاطئ يراقب ما يجري! وصل موسى إلى جزيرة صغيرة فوجد رجلا وقورا عليه هيبة وجلال فقال له موسى:

- السلام عليك أيها العبد الصالح.

فقال الرجل:

- وهل بأرضك سلام يا موسى؟

عجب موسى من معرفة الرجل باسمه فسأله:

- ومن أعلمك باسمي؟

فقال الرجل:

- أعلمني الذي أرسلك إلي.

فسأله موسى يطلب الإذن له بمرافقته ليقتبس من علمه ما يرشده في حياته:

- ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾ الكهف: ٦٦.

فرد الرجل بأنه سيقوم بأفعال غريبة لا يفهمها موسى بحدود عقله الإنساني، لأن فيها أسرارا فوق إدراك العقل البشري الظاهري.

فوافق موسى على ألا يعترض على أي شيء يفعله الرجل. ثم سار خلفه.

[الدرس الأول]

انطلق موسى مع العبد الصالح يسيران على شاطئ الجزيرة، وفيما هما يمشيان رأى موسى عصفورًا يهبط ويلتقط بمنقاره قطرة من الماء ثم يطير. فتبسم العبد الصالح وقال لموسى:

- ما علمي وعلمك من علم الله تعالى إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، وإذا خطر ببالك أنك أعلم أهل الأرض فإن علمي وعلم الأولين والآخرين بالنسبة لعلم الله سبحانه وتعالى أقل من القطرة التي حملها العصفور في منقاره من البحر.

وفيما هما يسيران مرت سفينة مقبلة من بعيد فأشار إليهما العبد الصالح فكلمهم أن يحملوها فعرفوا الخضر فحملوهما (ركبا في السفينة) بغير أجر. وصارت في عرض البحر، فوجئ موسى بصاحبه العبد الصالح يمسك بقطعة من حديد، وراح يضرب بها قعر السفينة حتى قلع لوحا من ألواح السفينة، وأخذ الماء يتسرب إلى السفينة! دهش موسى مما رأى، فأخذ قطعة من ثيابه يحاول أن يسد بها الفجوة التي تسرب منها الماء. واستنكر موسى هذا العمل من العبد الصالح وأخبره قائلًا:

- قوم قد حملونا بغير أجر ثم عمدت إلى سفينتهم فخرقتها! لقد فعلت أمرا منكرا عظيما وقال له:

- أخرقت السفينة لتغرق ركابها؟ إن هذه مؤامرة عليهم!

لكن العبد الصالح لم يجب عن أي سؤال لموسى، ولم يفسر له أسباب فعله بل فاجأه عندما قال له وهو يذكره بلطف مخالفته للشرط، فتذكر موسى تعليمات معلمه له قبل أن يركبا السفينة، فاعتذر في الحال، ثم رجاه ألا يكلفه مشقة في صحبته، وأن يعامله باليسر لا بالعسر. وكان الماء يزداد ويرتفع في قعر السفينة، فاضطرب الركاب وذعروا، فأمسك الرجل الصالح بيد موسى، فإذا هما على الشاطئ من جديد، ووقفا يراقبان السفينة التي أخذت تتمايل، وقد ساد فيها الهرج والمرج. ثم أخذت تستقيم وتستوي على الماء مرة أخرى فأدرك الرجلان أن أهل السفينة قد أصلحوا خللها، وسدوا الفجوة، فاستأنفت سيرها مرة أخرى. كان هذا الدرس الأول لموسى..

[الدرس الثاني]

فقد راح موسى والعبد الصالح يمشيان سيرا على الأقدام، حتى وصلا إلى حي من الأحياء. وفي هذا الحي وجدا مجموعة من الأطفال يلعبون ويمرحون ومن بين أولئك الغلمان غلام يلعب معهم وكان غلاما وضيء الوجه جميل الصورة، فأقبل عليه العبد الصالح وأخذه من بين أصحابه، وقتله أمام أنظار موسى، ثم رماه على الأرض قتيلا. ذهل موسى مما رأى، وقد رأى ما لم يكن يتوقعه، وما لا يقبله أبدًا. وكيف يرضى وهو النبي العادل بإزهاق روح غلام زكي، لم يرضَ بهذا وأنكره على صاحبه إنكارا، قال له وهو غير ناس هذه المرة.. وليس غافلا عما اتفق عليه مع صاحبه العبد

الصالح، فقال له:

- لقد فعلت منكرا فظيعا!

فابتسم العبد الصالح، وقال لموسى: لأنك تحكم على أفعالي بالظاهر، وأنا أتصرف بأسرار الكون بأمر من الله سبحانه وتعالى.

ويعود موسى لنفسه ويجد أنه خالف وعده مرتين، فيندفع ويقطع الطريق على نفسه ويجعلها آخر فرصة أمامه! فأسف لمعلمه قائلًا:

- قد بلغت إلى الغاية التي تعذر بسببها في فراقي حيث خالفتك مرارا. والدرس الأخير..

[الدرس الثالث]

استأنف الرجلان سيرهما، سار موسى وقد بلغ الجوع والتعب منه، حتى وصلا قرية تسمى (أنطاكية) وكان أهلها معروفين بالبخل واللؤم وعدم إقراء الضيف وقد وصلا إليها ليلا وكانت ليلة باردة، فطلبا طعاما، لكن أحدا من أهل القرية لم يقدم لهما طعاما ولا ماء ولا مأوى! بل كلما طرقا باب أحد البيوت طردوهما، ولم يعد لموسى وصاحبه أي أمل في أهل هذه القرية، ثم مشى الرجلان في القرية، فوجدا جدارا، ونظرا إليه فإذا هو حائط على الطريق وكان قديما مائلا، وكاد من شدة قدمه ينهدم ويسقط فيقع على الأرض. أقبل العبد الصالح على الجدار فبناه من جديد بمساعدة موسى فأنكر على صاحبه صنع المعروف مع غير أهله، وقال له:

- قوم استطعمناهم فلم يطعمونا، وضفناهم فلم يضيفونا، ثم قعدت تبني لهم الجدار! ثم اقترح عليه موسى أن يأخذ أجرا يشتريان به طعاما!

وبهذا القول خالف تعليمات معلمه للمرة الثالثة، لأنه اعترض عليه قبل أن يشرح له سر أفعاله هذه وهنا قال له معلمه:

- ها قد حان وقت الفراق بيننا حسب قولك أنت. لقد انتهت الرحلة عند هذا الحد قرب هذا الجدار!

انتظرت حتى حانت الفرصة المواتية لأسأل:

- عاد نبينا موسى دون أن يكتشف الأسرار من العبد الصالح؟

أجابت على سؤالي مبتسمة:

- كلا. ولكن قبل أن يقول العبد الصالح كلمة الوداع الأخيرة لموسى، أوضح له بأنه سيخبره بحكمة هذه المسائل الثلاث التي أنكرها عليه موسى ولم يستطع صبرًا عليها.

وقف موسى ينتظر سماع أسرار العبد الصالح، ولو أن موسى ((لبث مع صاحبه لأبصر العجب)) قال العبد الصالح يبين تفصيل الأحداث التي رآها موسى ولم يطق لها صبرًا:

-لقد كان أصحاب السفينة أناسًا ضعفاء. يشتغلون بسفينتهم في البحر، بقصد الكسب، ثم قام العبد الصالح بخرقها لكي يجعلها معيبة غير صالحة للإبحار، فلا تعود ذات نفع، وسبب ذلك أنه كان هنالك ملك ظالم، ستمر السفينة على مياهه، وهذا الملك الكافر الظالم يغتصب كل سفينة صالحة لا عيب فيها.

وبهذا العمل أنقذ العبد الصالح السفينة لأصحابها عندما اجتازوا بسفينتهم المياه التي تحت سلطة الملك الظالم، فإنه لم يأخذها لأنها كانت معيبة.. ولكنهم أصلحوها بعد ذلك وانتفعوا بها. وراح العبد الصالح يبين

لموسى سبب قتل الغلام الجميل، فذلك الغلام الحسن الوجه كان كافرا فاجرا. وقد سبق في علم الله أن هذا الغلام مطبوع على الكفر، وكان أبواه يحبانه حبا جما. لقد خاف العبد الصالح أن يحملهما حبهما الشديد له على اتباعه في الكفر والضلال. وذلك لأنه طُبع كافرا ولو عاش لأرهق أبويه طغيانا وكفرا. لقد قصد بقتله أن يرزق الله أبويه المؤمنين ولدًا صالحًا خيرا من ذلك الكافر. وهذا ما كان فأكرم الله الأبوين المؤمنين فرزقهما ابنة صالحة رحيمة بأبويها. ولما كبرت تزوجها نبي فولدت له نبيا.

وأخيرا كشف العبد الصالح لموسى أسرار هدم وبناء الجدار. فقال له:

- في المدينة نفسها التي أبى أهلها أن يضيفوا موسى والرجل الصالح، وكان والد هذين اليتيمين رجلا صالحا تقيا، من أهل هذه القرية، يقري الضيف، ويكرم المحتاج. فقال الرجل الصالح لموسى:

- ولما أدركته الوفاة دفن ثروته في أساس هذا الجدار، خوفًا عليها من أهل القرية اللئام. وكان الأب يأمل أن يكبر الغلامان فيعثرا على الكنز. وكان ذلك الكنز لوحًا من الذهب مكتوبا فيه علم وفقه. الله أراد بهذا الصنيع والعمل الشهم الذي قام به العبد الصالح أن يكبر الغلامان ويشتد عودهما لكي يستخرجا كنزهما من تحت الجدار.

فأدرك موسى أن علمه قليل إلى جانب علم هذا الرجل الصالح، وأن علم هذا الرجل قليل إلى علم الله، ثم ابتسم الرجل الصالح وأخبر موسى بأن ما فعله من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، لم تكن كلها عن رأيه واجتهاده، بل فعلها بأمر الله وإلهامه.

ثم بدأ العبد الصالح يذكر موسى بماضيه، ويقارنه بما فعله هو العبد الصالح فراح يسأله فيجيب هو على ما يسأل، فقال لموسى:

- أتلومني على خرق السفينة خوفًا على ركابها من الغرق، ونسيت أن أمك ألقتك في نهر النيل وأنت طفل فحفظك الله؟

ثم ذكره بحادثة جعلته يفر من مصر فرارًا، فسأله.

- وتلومني على قتل الغلام بأمر الله سبحانه، ونسيت أنك قتلت القبطي بغير أمر.

ثم ذكره بتلك الساعة التي سقا فيها للمرأتين عند بئر مدين، فسأله:

- وتلومني على أنني أقمت الجدار ولم آخذ عليه أجرًا، ونسيت أنك سقيت غنم المرأتين مُحتسبًا من غير أجر؟

ثم قال العبد الصالح لموسى:

- يا موسى، عد إلى قومك، واعلم أن العلم صفة من صفات الله، وصفات الله لا نهاية لها.

ولما لم يجد موسى أمامه فرصة ليسأل سؤالا أقبل على العبد الصالح وطلب منه شيئا آخر فقال له:

-أوصني.

فقال العبد الصالح:

- كن بساما ولا تكن ضحاكا، ودع اللجاجة، ولا تعب على الخطائين خطاياهم، وابك على خطيئتك يا ابن عمران.

ودع موسى العبد الصالح، ثم قفل راجعا إلى فتاه.

في هذه اللحظات التي تفيض قلوبنا بالإيمان والحماسة لمعرفة حكاية النبي موسى مع المعلم، استحضرت سؤالا في ذهني وقلت لجدتي:

- سبب هذه الرحلة المفاجئة هو البحث عن معلم، ولكن هل يحتاج موسى النبي الذي يوحي إليه ربه ويكلمه إلى معلم يعلمه؟، وهل في زمانه من هو أقرب إلى الله منه؟

أجابتني جدتي قائلة:

- وذلك أنه قام خطيبًا في بني إسرائيل حتى فاضت العيون، ورقت القلوب، وسئل: أي الناس أعلم؟، فقال:

- أنا.

فعتب الله ﷻ عليه إذ لم يرد العلم إليه سبحانه. فأوحى الله إليه:

- إن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك.

فقال موسى:

- يا رب كيف لي به؟

فقال له جبريل:

- خذ سمكة مملحة في مكتل، فإذا ضاعت منك السمكة في مكان، فسوف تجد الرجل هناك. قارب النجاة منها التواضع!

نظرت إلى الساعة التي في معصمي فوجدت الوقت يمضي بسرعة لذا قلت:

- شكرا لك يا جدتي الغالية على كل هذه المعلومات.

- صمتت جدتي للحظات وارتشفت جرعة ماء من الكوب، ثم قالت لنا بلهجة فيها شيء من الاعتذار:

- علام تشكرونني يا حفيداتي الغاليات، فأنا أشعر بالبهجة والسرور عندما أحكي لكنّ حكايات عن سير الأنبياء والرسل التي وردت في القرآن الكريم، لكنني أخاف أن يداهمنا الوقت على صلاة الظهر.

قالت ذكرى على عجلة:

- ما زال أمامنا أكثر من أربعين دقيقة يا جدتي الغالية.

سألت جدتي لأباغتها كي تجيبني عن حكاية ذي القرنين ويأجوج ومأجوج عندما قلت:

- هل ذو القرنين نبي؟

هزت رأسها وقالت:

- ذو القرنين هو عبد صالح ملكه الله الأرض، وأعطاه العلم والحكم والسلطان. وسمي ذا القرنين لبلوغه المشرق والمغرب فكأنه حاز قرْني الدنيا.. وقد يسر الله له أسباب الملك والسلطان والفتح والعمران، وأعطاه الله كل ما يحتاج إليه للوصول إلى غرضه. وانتصر ذو القرنين وألحق هزيمة بآلهة اليونان التي كان يعبدها (كروسس) الملك المهزوم وأنصاره. اجتاح الغرب كله، فاتجه بين المشرق والمغرب صوب الشمال، حيث الجبال الشاهقة هناك! جبال القوقاز بين بحر قزوين والبحر الأسود، حيث كانت تسكن قبائل، تعيش على السطو والنهب والسلب، وكانت هذه القبائل تأتي من خلف الجبل، من أرض (منغوليا). فأراد ذو القرنين أن يحمي مملكته العريضة، من غارات قبائل (المنغول) الرحل، ويأمن شرهم وطغيانهم على

شعوب مملكته، وكان أعتى هذه القبائل وأشدها همجية وفتكًا، قبيلتين تسميان: يأجوج ومأجوج. مضى ذو القرنين سائرًا بجيشه العظيم وقوته المهابة، حيث وصل إلى منطقة بين جبلين عظيمين، وجد ذو القرنين من وراء السدين قوما متخلفين، لا يكادون يعرفون لسانا غير لسانهم إلا بمشقة وعُسر، وكانوا لا يفقهون القول لغرابة لغتهم، وبطء فهمهم وبُعدهم عن مخالطة غيرهم، وما فهم كلامهم إلا بترجمان. فأقبل هؤلاء القوم على ذي القرنين وشكوا إليه ما يلاقونه من قبيلتي يأجوج ومأجوج، من أذى وإفساد، وعرضوا عليه ما يوقعونه بهم من قتل وسلب ونهب، وبينوا لذي القرنين حقيقة يأجوج ومأجوج، فقالوا إن بين هذين الجبلين خلقًا من خلق الله، هم من الكثرة بحيث لا يحصى عددهم، وهم يأكلون العشب، ويفترسون الدواب، ويأكلون حشرات الأرض، وهم حفاة عُراة، وعن الحق عُماة، مفسدون في الأرض. وكانوا يخرجون من مضيق جبل القوقاز أيام الربيع، فلا يتركون أخضر إلا أكلوه، ولا يابسا إلا احتملوه. ثم التمس هؤلاء القوم من ذي القرنين ورجوه أن يمنع عنهم عدوان يأجوج ومأجوج، فعرضوا عليه أن يفرضوا له جزءًا من أموالهم، وذلك ضريبة وخراج، لكي يبني لهم سدا يحميهم من شر يأجوج ومأجوج وإفسادهم. لكن ذا القرنين رفض الضريبة التي عرضها عليه أولئك القوم المقهورون على أمرهم، وبين لهم أن ما بسطه الله له القدرة والملك هو خير مما عرضوه عليه من المال، فقال:

- (ما مكني فيه ربي خير).

فلا حاجة لي بالمال، ولكن أعينوني بالأيدي والرجال، ثم بدأ ذو القرنين وتطوع ليبني السد، فطلب منهم أن يعينوه بالبنائين المهرة، ويحضروا الآلات المطلوبة، وبالعلم الذي أتاه الله إياه، صمم لهم الحاجز العظيم بطريقة لا تخطر على بال أحد، فأمر بحفر الأساس من الصخر، وأمر بوضع طاقة من قطع الحديد والحجارة، ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنفاخ حتى تحمى، وإذا انصهر الحديد صار نارًا، ثم يؤتى بالنحاس المنصهر فيفرغ على تلك الطاقة المستوية فإذا التأم واشتد ولصق بعضه ببعض، استأنف وضع طاقة أخرى إلى أن استوى العمل، فصار جبلا صلدا. وبعد الانتهاء من كل تلك المواد في عمل السد، لم يقدروا ولم يستطيعوا أن يخرقوه ويثقبوه من أسفله، بسبب صلابته وثخنه. وبهذا السد المنيع أغلق ذو القرنين الطريق على يأجوج ومأجوج. وصارت تلك البلاد كلها في مأمن من الغارات، ثم مات ذو القرنين وهو على رأس مملكة عظيمة. فهاجم مملكة ذي القرنين الإسكندر المقدوني وغزاها، فقسمها إلى أربع ممالك، وعين عليها حكاما مقدونيين، ومات ببابل عام ٣٢٣قبل الميلاد. وهكذا تحققت جميع أجزاء الرؤيا التي رآها النبي (دانيال).

كانت إيمان ابنة عمي الصغيرة قد تعلقت عيناها صوب جدتي وطيلة هذه الفترة لم تنبس ولو بكلمةٍ واحدة لكنها فاجأتنا جميعا، وقالت بكل هدوء:

- لكنك لم تخبرينا عن الرؤية التي رآها النبي (دانيال)؟

وقبل أن تجيب جدتي على سؤال إيمان، قلت على عجلة:

- وما هو قارب النجاة منها؟

قالت:

- قارب النجاة هو الإخلاص! ثم راحت وهي توجه بصرها إلى إيمان تقول:

- {لك كل الحق في هذا السؤال يا إيمان.. حيث كانت الرؤيا للنبي دانيال أن قد وقف الكبش القوي الشديد متوثبا للنطاح، وكان كبشا غريبا حقا، لأن قرنيه الحادين يقع أحدهما خلف الآخر، ثم جرى الكبش الغريب جريا شديدا، واتجه شرقا فأخذ ينطح كل حيوان يقف أمامه، لا يتعب ولا يتراجع ولا يرهبه أي حيوان يريد مقاومته، حتى صارت الحيوانات تفر من أمامه فرارا، ثم استدار الكبش ذو القرنين الحادين، واتجه غربا، وراح يناطح كل حيوان يقف في طريقه، صغيرا كان أو كبيرًا، ثم عاد واتجه شمالا، وجنوبا، وفعل كما فعل حين جرى شرقا وغربا، ولكن تيس معز، (وهو الذكر من المعز) خرج من جهة الغرب، وكان له قرن وحيد شديد بين عينيه أقبل على الكبش القوي، فضربه ضربة شديدة كسر بها قرنيه، فانهزم الكبش، وما عادت لديه قوة على مناطحة التيس. أما التيس فقد ازداد قوة إلى قوته، ولكن قرنه الوحيد بين عينيه انكسر، وطلعت له عوضًا عنه أربعة قرون ضعيفة}. كل هذه الحكاية الغريبة العجيبة، كانت رؤيا رآها النبي (دانيال) عليه السلام في منامه. ثم جاء جبريل إلى (دانيال) وراح يعبر له رؤياه، وفسرها له، فقال:

- إن الكبش الذي رأيته في الرؤيا وله قرنان هو ملك مادي وأيمن، وأما التيس فهو ملك اليونان الأول الذي سيقضي على ملك أيمن، وإذا انكسر، فستقوم أربع ممالك، ليست بقوة الملك الأول. وقد تحققت الرؤيا التي رآها

(دانيال) وذلك بحكم (ذي القرنين)، ثم بتغلب الإسكندر المقدوني بعد ذلك.

انطلق صوت أذان الظهر في الأرجاء فتوقفت جدتي عن الكلام، وفرشت سجادتها كي تنوي للصلاة. ونحن البنات وأمي وزوجة عمي اللتان قد انتهيا من إعداد طعام الغداء، قمنا ونوينا صلاة الظهر في يوم مبارك ألا وهو يوم الجمعة.

(عصر يوم الجمعة)

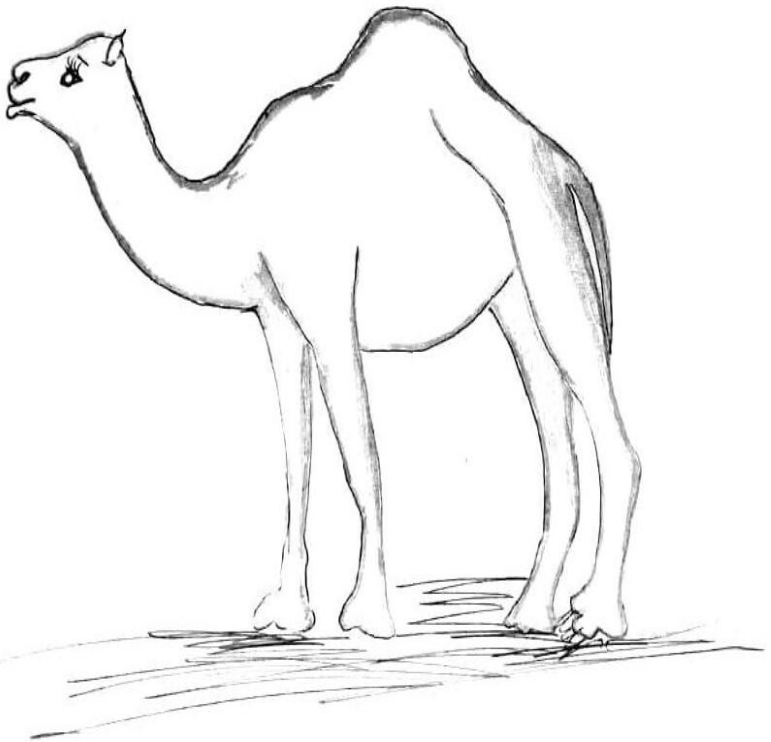

بعد أن عاد أبي وعمي وإخوتي وابن عمي ذاكر من المسجد، جلس الجميع على مأدبة طعام الغداء ونحن نلتم بدفء وحنان الأبوين والجدة الغالية (فتحية)، ما أجمل صلة الرحم بين الإخوة والأقارب،فقد تعود أبي أن نزور بيت عمي كل أسبوع برفقة جدتي، والأسبوع الذي يليه يبادلنا عمي "منير" الزيارة ذاتها، وبينما نتناول الغداء بدأ الهمس بيني وبين "أزهر" بأن جدتي حكت لنا حكايات كثيرة من سورة الكهف، وكان أخي الصغير"فارس" يسترق السمع علينا. وابنة عمي "ذكرى" هي الأخرى راحت تهمس لشقيقها "ذاكر" عن الموضوع ذاته.

وبعد الانتهاء من تناول طعام الغداء، راح أبي وعمي وزوجة عمي يتابعان ما يحدث من أخبار وبرامج تعرض في يوم الجمعة، أما نحن الأحفاد بنين وبنات جلسنا حول جدتي في حديقة البيت وهي تحتسي فنجان قهوتها.

أخذنا نلهو ونلعب فيما بيننا، لكن الأولاد (أزهر وفارس وذاكر) كانوا يتبادلون النظرات مع بعضهما البعض؛ فاقترب ذاكر ابن عمي منير من جدتي وقال لها برجاء:

- لقد فاتني أن أسمع منك حكايات سورة الكهف يا جدتي الغالية.

ابتسمت جدتي وردت عليه بحنان كبير:

- لكنك كنت تصلي في المسجد يا حفيدي الغالي.

ثم أردف قائلا:

- نعم، لكن قبل أن نعود إلى بيتنا أرجوكِ أن تخبرينا عن خامسٍ من اللغز؟

قالت الجدة:

- لا أستطيع أن أرد لك طلبا.

فصحنا بأعلى أصواتنا فرحين:

- هي..ي..ي..ي. عاشت جدتنا فتحية.. عاشت.

أومأت لنا بسبابة أصبعها ثم أشارت لنا بالجلوس على أرض الحديقة المزروعة (بالثيل) كأنها سجادة تفترش الأرض. وامتثلنا لأمرها على الفور بالجلوس على أرضية الحديقة نصغي بكل اهتمام وشوق كبيرين، ثم قالت:

- الجواب الخامس للغز هو: (ناقة سيدنا صالح التي خرجت من الجبل).

رددنا بصوت واحد مستغربين مندهشين:

- سبحان الله، على كل شيء قدير.

وأردفت جدتي بالقول:

- بعث الله صالحا عليه السلام نبيا إلى ثمود، وحذرهم من عقاب الله، وطلب منهم أن يطيعوه ويسمعوا نصيحته.

ويمضي الزمن وصالح يؤدي رسالته، ولكن القوم كانوا كأنهم لا يسمعون، فما آمن به إلا الضعفاء من قومه، أما أهل المال والقوة والسلطة فأمعنوا في البغي والكفر والطغيان، وأصروا على عبادة الأوثان، واتهموا صالحا بالخلل في عقله، وردوه متهمين إياه بأنه سُحر حتى غاب

عقله؛ فخاف كبراء القوم وسادتهم الطاغون على مصالحهم، وخشوا على زوال سلطانهم فأعلنوا موقفهم المعادي لصالح. وأشاروا إلى صخرة عظيمةٍ، وطلبوا منه أن يأتيهم بمعجزة تثبت صدقه ليؤمنوا به فقالوا:

- أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة حقيقةً.

قالوا ذلك بقصد السخرية والاستهزاء بتعجيزه في طلب المستحيل منه.

قاطعها فارس:

- وما كان جواب النبي صالح لهم؟

- لكن صالحا نبي الله يعلم بكل يقين أن الله قادر على أن يخلق ما يطلبون؛ لذلك أجابهم بكل جد بأنه سيخرج لهم من الصخرة ناقة تكون لهم آية، آية بينة حية بينهم تدلهم على قدرة الله سبحانه تعالى، وها هي الصخرة الصماء تتمخض فتلد، ناقةً ضخمة الجسم، مثيرة الهيئة، ولدت بمشيئة الله سبحانه تعالى، بعد أن دعا صالح ربه فاستجاب له، وكانت فخمة، مهيبة، سوداء الحدق، حمراء الوبر، أرعبت أنعامهم وأخافت إبلهم، فقام صالح يعلن لهم عن هذه المعجزة التي تدل على صحة نبوته. وذهل القوم أي ذهول، وهم يشاهدون بأم أعينهم الناقة الضخمة. فآمن قليل منهم، وبقي أكثرهم على عنادهم وتكبرهم، بقوا صامتين كآلهتم الصماء، وأخبر صالح قومه بالشروط التي يجب أن يراعوها، فمن تعرض لها بسوء ناله العذاب الشديد، وهكذا راحت الناقة تشرب الماء من بئر ثمود الوحيدة، يومًا كاملا لها لا يشاركونها فيها، وكانت إذا شربت أتت على الماء كله يومها، وبهذا وجدوا أنفسهم في الابتلاء الذي أراده الله؛ فلم يعد الماء يكفيهم بين يوم ويوم؛ فكرهوا مقام الناقة بينهم، واجمعوا على قتلها.

وقد أخذنا العجب جميعًا، وقلت:

- ماذا؟! يقتلون الناقة؟ وهل فعلوا ذلك حقا؟

- "التردد فيهم ما كان يمنعهم من ذلك، ولكن سرعان ما حسمت هذا التردد امرأتان، كانت لهما إبل ومال وجمال.

إحداهما تسمى (صدوق) وقد عرضت نفسها لمن يقتل الناقة! فانجذب إليها شقي اسمه (مصدع بن مهرج).

وكانت المرأة الثانية (عنيزة) كانت لها بنات حسان جميلات، فعرضت إحدى بناتها على شقي آخر اسمه (قدار بن سالف) فاستجاب لها.

ورمى (مصدع) الناقة بسهم.

أما (قدار) فأقبل عليها بسيفه بسرعة ونشاط.

واقتسم أهل المدينة لحم الناقة وعدوا ذلك اليوم عيدًا لهم، فاحتفلوا فيه فرحين لاهين، وهم غافلون عن عقاب الله، ثم إنهم لم يكتفوا بهذه الجريمة، بل سخروا من صالح، وطلبوا منه أن يأتي بالعذاب الذي أنذرهم به؛ فملأ الحزن قلب صالح لأنه أيقن بعد هذا أن عذاب الله نازل بهم لا محال. وأنذرهم صالح بأنهم يصبحون وجوههم مصفرة، وفي اليوم الثاني تكون وجوههم محمرة، وفي اليوم الثالث تكون وجوههم مسودة، آية هلاكهم، ثم يصبحهم العذاب، فلم يكتفوا بعقر الناقة وإنما بيتوا مؤامرة غادرة لقتل صالح وأهله.

وانتهت الأيام الثلاثة، وهي المهلة التي قدرها الله للكافرين من ثمود، ولم تبدر من قوم ثمود أية نية للتوبة أو الاستغفار لذنوبهم وطغيانهم".

قال ذاكر بصوت متهدج:

- وماذا حل بهم من عقاب؟

- وفي ذلك الصباح الرهيب نزل بهم العقاب الشديد، فكانت صيحة واحدة مهلكة، صاعقة عذاب أخذتهم فكانوا يشاهدونها لأنها جاءت وضح النهار فلم يقدروا على الهرب من شدة الصيحة، وانشقت من هولها قلوبهم، وزلزلت الأرض تحتهم زلزالا شديدا، وصبت عليهم حجارة من السماء فماتوا عن آخرهم وهلكوا كلهم شر هلاك، وكان الذين نجوا مع صالح مائة وعشرين، أما الهالكون فكانوا خمسة آلاف بيت.

مضى زمن حتى غربت فيه الشمس، وجاءت زوجة عمي لتودع جدتي لغرض العودة إلى بيتهم، فنهضت "ذكرى" وقبلت جدتي بأحلى القبلات وتبعتها إيمان ثم راشد، ونحن أيضا بدورنا ودعناهم على أمل اللقاء في الخميس القادم إن شاء الله.

(ليلة ممطرة)

مضى زمن غربت فيه الشمس معلنة حلول الظلام ليهبط المساء في ليلة باردة من ليالي الشتاء، وفي ذلك المساء حيث تكاثفت السحب والغيوم وهي تحمل في باطنها قطرات المطر، وبينما كان فارس أخي الصغير في غرفته وعلى سرير نومه يغط في نوم عميق وهو يعاني من حمى بسيطة من أثر الزكام، أخذت السماء تبرق ثم ترعد وانهمر المطر بغزارة يلقي بقطرات ماء الثلج (الحالوب) على الأرض وتطاير بعض منها على زجاج نافذة الغرفة التي ينام فيها فارس.

فز فارس من نومه مذعورًا من أثر الحمى وأخذ يهلوس ويصرخ:

- آآآآآآ.

بينما كنا نحلق حول المدفأة في بيتنا الجميل في تلك الليلة الباردة الشتوية، لكنها دافئة بحب الأبوين وأكثرهما حنانًا ودفئا هي جدتي (فتحية)، مما حدى بأبي أن ينهض ويهرع راكضا إلى الغرفة التي ينام فيها فارس ونحن من ورائه. وما إن دخلنا الغرفة حتى عقدت الحيرة والدهشة ألسنتنا جميعًا، تلونت الوجوه بالإصفرار، ويبست الشفاه واضطربت الأصوات! إلا أن جدتي هدأته وطمأنته وأخذت تمسك بيديها على جبين ورأس فارس وقالت:

- ما بك يا فارس؟ خائف لهذه الدرجة؟

لم تطاوع الكلمات من فم فارس وتلعثم في الإجابة ليقول لجدتي:

- سمعت صوت شخص! وشاهدته يقف خلف زجاج النافذة!! ربما كان شيطانا!! أو جانًّا يا جدتي!

شعرت بقلبي ينبض بسرعة تلو نبضة، مما أثار في نفوسنا نحن كذلك تساؤلات!

أمسك فارس بجدتي خائفًا ووضع رأسه بين أحضان جدتي التي أخذت تقبله وتهدأ من روعه وهي تقول له:

- لا تخف يا حفيدي الغالي، الشيطان أو الجان لا يستطيعان أن يفعلا للإنسان أي شيء سوى الوسوسة!

جلست أنا وكذلك "أرشد" على سرير فارس.

خرج أبي وأمي من الغرفة بعد أن اطمأنا على حالة فارس المرضية.

كتمت أنفاسي وكذلك أخي "أرشد" لكنه قال لجدتي متسائلا:

- كيف يا جدتي ونحن نسمع الحكايات المخيفة والمفزعة عن الشيطان؟

أجابته جدتي:

- هل تذكرون عندما حدثتكم عن أبينا آدم وكيف وسوس له ولزوجه حواء، وأخرجهم الله من الجنة إلى الأرض.

تشجعت وقلت لجدتي:

- وهل من حكايات لوسوسة الشيطان للأنبياء والرسل؟

استدارت جدتي لفارس الذي لا زال يمسك بيد جدتي التي قالت:

- نعم ما حدث لبطل الصبر نبينا أيوب وابنه ذي الكفل، لكن سأحكيها لكم حالما يشفى فارس من وعكته الصحية.

استعدل فارس بجلسته وقال:

- ماذا؟ أنا بخير يا جدتي الغالية، وجودك وحنانك كان لي خير دواء.

ثم قال لها برجاء:

- هيا يا جدتي الغالية احكي لنا؟

ابتسمت بوجه فارس وقالت:

- كان أيوب رجلا مؤمنا تقيا يخاف الله، عطوفا على الأرامل والأيتام، حتى أنه كان لا يتناول طعامه إلا مع يتيم. وكان يكرم الضيف ويساعد ابن السبيل. وكانت له زوجة كريمة صالحة هي (رحمه) بنت إفرائيم بن يوسف عليه السلام. ولم يؤمن بنبوة أيوب إلا ثلاثة من المؤمنين، فضلا عن أهله، وزوجته وأولاده الصالحين. الملائكة يحبون المؤمنين حبا عظيما ويزداد هذا الحب كلما ازداد العبد إيمانا وإخلاصًا. قال أحد الملائكة:

- {ما على الأرض اليوم خير من أيوب النبي}.

فأنصت الملائكة فرحين،كأنهم يريدون معرفة المزيد، فقال الملك:

- {نعم العبد الصالح أيوب، لأنه يخرج من ماله وثروته حقا للفقراء والمساكين وأهل الحاجة، فيعينهم خير عون}.

فازداد الملائكة المنصتون حبا لأيوب وإعجابا به.

اغتاظ إبليس وفاض حقدا وكرها لأنه عرف أن أيوب يعبد الله على الأرض كما لا يعبده أحد في زمانه سواه، عبادة خالصة جعلت أيوب ينال من الملائكة الحب. كل الحب. فهاج إبليس وماج، فقصد أيوب في الحال، فوجده في نعمة عظيمة من الله وفضل، يذكر الله دائبا في كل وقت. فأقبل إبليس على قلب أيوب وراح يوسوس فيه، ويغريه، لكنه خاب ولم يفلح، لأنه وجد لدى أيوب قلبا مفعما بالإيمان واليقين، لأن أيوب من عباد الله المخلصين، رجع إبليس مذعورا نافرا خائبا،

فراح ينادي الله سبحانه:

- {يا رب ،عبدك أيوب لا يعبدك تطوعا من نفسه ولا حبا فيك، وإنما يعبدك لأنك منحته مالا وبنين، واسبغت عليه ثراء وأملاكا.. لذا فهو يعبدك لكي تحفظ له هذه النعمة ولا تزيلها عنه. فلو أنك يا رب نزعت عنه هذه النعمة لأعرض عن طاعتك، ولسكت لسانه عن ذكرك، ولئن ابتليته ببلاء لكفر بك ونسي طاعتك}.

ثم انطلق إبليس، مجنونا مسعورا، فجمع قادة الشياطين وزعماءهم، وأغراهم بإهلاك أموال أيوب وإتلافها، أعلن عن خطته ومكيدته.

قلت:

- وما كانت خطة إبليس لنبينا أيوب عليه السلام؟

- هي إن زوال المال هو المصيبة، والبلاء الذي لا يصبر عليه الأغنياء، ثم أمر إبليس أعوانه الشياطين بتدمير كل ما يملك أيوب، وفي الحال تحول أحد الشياطين إلى إعصار من نار تتلظى وهبت تلك النار على كل ما يملكه أيوب فأحرقته وجعلته رمادا تذروه الرياح، تشفى إبليس وسَعِد وهو يرى كل أملاك أيوب قد صارت رمادا، ثم تمثل بهيئة إنسان وتنكر بزي راع من الرعاة الذين كانوا يرعون أموال أيوب، وأقبل عليه راكبا جملا، فوجده يصلي لله بكل خشوع، فسأله بمكر وخبث:

- يا سيدي! هل تدري ما الذي صنع ربك الذي تعبده الآن؟

فلم يلتفت إليه أيوب إلا بعد أن أتم صلاته ودعاءه، ولم يسأله شيئا لأنه موقن أن الله سبحانه لا يصنع به إلا خيرا، فبادر إبليس المتنكر وقال:

- لقد أهلك ربك كل إبلك!.

ولكن لم تتأثر شعره واحدة في بدن أيوب مما سمع، ولم يجد الحزن إلى قلبه سبيلا، وظل يردد كلمات الحمد والشكر لله، مع نفسه، وبصوت يسمعه إبليس.

فقال إبليس المتمثل بشرا والمتنكر راعيا:

- (والناس يقولون يا سيدي، نعم، يقولون: لو أن إله أيوب يقدر أن يصنع شيئا، لكان منع عبده أيوب وحمى ماشيته من الإحراق).

لكن هذا الخبر المؤسف وقع على قلب أيوب بعكس ما توقع إبليس اللعين. فقد وجد أيوب هذا الخبر فرصة ثمينة يؤكد فيها لربه صدق عبادته وإخلاصه، فقال أيوب كأنه سمع بشرى أثلجت قلبه:

- (الحمد لله الذي أعطاني، وحيث شاء نزع مني، عريان خرجت من بطن أمي، وعريان أعود إلى قبري، وعريان أحشر إلى ربي).

وحين سمع إبليس هذا الكلام فأنه ذَل وخُذِل، وصغر وكفر، وكاد يتمزق من الغيظ.

عاد أيوب إلى عبادته وتسبيحه ودعائه، وسجد لله شاكرا لله، أما إبليس فقد خلع زي الرعاة، وخرج من تمثيله، وراح ينادي الله، متحديا مستكبرا، فصاح وهو يتقطع من الغيظ:

- (يا رب! صبر أيوب على البلاء، لأنه وجد في سلامة نفسه وولده عزاء عن ماله الذي فقده)

ثم أعلن إبليس غايته الخبيثة في إيذاء أيوب، فقال:

- (ولو أنك ابتليته بولده ما صبر هذا الصبر، لأن البلاء في الأولاد أصعب أنواع البلاء، حتى إن نوحا لم يصبر على غرق ولده إلى أن نهيته أنت

عن الجزع).

ثم شاء الله أن يبتلي عبده أيوب في أهله وأولاده من بنين وبنات؛ فانطلق إبليس اللعين كالصاعقة العاتية، وأنقض على قصر أيوب وفيه أهله كلهم، فزلزل القصر زلزالا شديدا، فتهاوت جدرانه كلها، فهلك جميع أهل أيوب تحتها وماتوا عن آخرهم.

ثم شرع إبليس فتمثل بهيئة إنسان مرة أخرى، وتنكر بزي المعلم الذي يعلم أولاد أيوب، وانطلق وهو ممتلئ بخبث السرور الشيطاني نحو أيوب، فجلس عنده، وعليه جروح في رأسه ووجهه، وراح يحكي لأيوب قصة هلاك أهله كلهم وأولاده وبناته، راح يصف تلك المأساة لأيوب وصفا دقيقا فاجعا، ثم سكت إبليس منتظرا أن يرى الفزع والجزع على أيوب!!.

بينما كنا نستسلم للصمت والانتباه نصغي لجدتي، قلت بعجب:

- وما كان رد النبي الصابر أيوب؟

- ظل هادئا مثل الجبل الراسخ، فعاد إبليس يحاول أن يضعف صبره، وهو يتظاهر بالحكمة، فقال:

- (يا سيدي! إن الله لم يكافئك بعبادته! نعم، نعم، حتى أنه لم يدفع عنك هذا البلاء!).

وعاد إبليس المتنكر بزي المعلم يصف لأيوب كل ما جرى لأولاده حين انهار القصر عليهم، حتى بكى أيوب شفقة على أحبته وقرة عينه، لكنه لم يجزع، فقال صابرًا:

- (الرب أعطى، والرب أخذ، فله الحمد معطيًا وسالبًا).

ثم خر أيوب ساجدًا لله، فاشتعل إبليس غيظا وحقدا، لكنه لم ييأس من إغواء أيوب؛ فرجع مرة ثالثة خاسئا ذليلا!!

دهشت ذكرى لما سمعته من جدتها وقالت:

- وماذا قال للبارئ الخالق سبحانه وتعالى؟

- قال: (يا رب،إنما صبر أيوب على ذهاب المال والولد لأنه يرى نفسه سالما معافى، وعنده أمل في أن تعيد إليه ماله وولده، ولو أنه أبتلي في جسده لنسيك ولكفر بنعمتك!).

ثم شاء الله أن يمتحن عبده أيوب في جسده هذه المرة، فأصابه المرض سبع سنين، وكان مرضا شديدا حتى ذهب لحمه، وشحب وجهه، فهجره الناس، وفر منه الصديق، وجفاه أحبابه ونسوه إلا زوجته المخلصة (رحمة)، فإنها أقبلت على أيوب بحنان ما بعده حنان، وسهرت عليه تمرضه وترعاه.

وكان المرض يأخذ منه حتى صار هيكلًا عظميا، بلا حول ولا قوة! وكانت (رحمة) تسعى لوحدها لكسب رزقها ورزق زوجها أيوب، فصارت مثلا كريما وقدوة للزوجة الصالحة التقية.

أما سيدنا أيوب فما زاده السقم والمرض إلا تقربا إلى سبحانه تعالى وبقي لسانه يلهج بذكر الله، كما بقي عقله وقلبه كذلك.

صعق إبليس وذهل، وهو يرى أيوب أضعف الناس جسدا ولكنه أقواهم إيمانا وأكثرهم صبرا، اعترف إبليس لأعوانه الشياطين بفشله مع أيوب، فأنكر الشياطين على إبليس قوله كل إنكار، وسألوه مستغربين لائمين:

- وأين مكرك وخبثك يا إبليس؟ وأين حيلتك؟ وأين وسوستك وفتنتك؟

قال إبليس وكأنه يتذكر جريمته القديمة مع آدم، فصرخ كل الحاضرين من الشياطين:

- كرر التجربة يا إبليس! افعل ذلك، حاول مع المرأة مرة أخرى، هيا لا تتأخر يا ملك الشر! اقتنع إبليس بهذا الرأي الخبيث.

تحول عجبنا إلى حيرة مما فعله إبليس مع النبي، واليوم يعود إلى زوجة الصابرة المحتسبة على أمر الله، فقلت:

- وهل استطاع إبليس أن يفعل شيئا لزوجة النبي أيوب؟

-"قبل أن يصل إلى امرأة أيوب تمثل بهيئة بشر وتزين بزي رجل غريب، فرآها تحنو على أيوب حنو المرضعة على الفطيم، لقد مرت سبع سنين على أيوب وهو على هذه الحال، مبتلى في جسده وصحته وتساقط لحمه حتى لم يبق منه إلا العظم والعصب، فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته، وأصبحت السيدة وحيدة، فبعد أن كانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه، فأصبح الناس لا يستخدمونها لعلمهم أنها امرأة أيوب، وذلك خوفًا من أن ينالهم بلاؤه أو تعديهم بمخالطته، لكنها ظلت على إيمانها وتقواها، وما يئست وما جزعت ولا تذمرت، وما سمع منها أيوب كلمة أُف واحدة".

وفي هذه اللحظات التي تفيض قلوبنا حماسة لمعرفة ما فعل إبليس بزوجة النبي أيوب قالت جدتي:

- حدث ما لم يكن في الحسبان!!

قلنا بصوت واحد:

- ما هو؟

- اقترب منها إبليس وسألها:

- أين زوجك يا امرأة؟

قالت رحمة وهي تشير إلى أيوب:

- هو ذاك كما تراه مشرفا على الموت! يا أسفي عليه، زوجي وحبيبي أيوب النبي!

فقال لها إبليس متظاهرا بالنصح:

- إيه أيتها المرأة المسكينة الطيبة، لهفي عليك! أين مضت تلك الأيام السعيدة، أيام كان قصرك الفخم كأنه من قصور الجنة، وأين؟ ايه! أين أولادك؟ أولادك السبعة يملؤونه بهجة وأفراحًا كأنهم في عيد دائم! إيه أيتها المرأة أين بناتك السبع الجميلات الفاتنات، يا لحزني عليك! أنت امرأة صابرة حقا، لا أدري يا سيدتي ما الذي جعلني أتذكر أيامك؟ وكيف نسيت تلك المئات، لا، بل آلاف المواشي من إبل وبقر وغنم والأموال،أيتها المسكينة تجثمين يائسة بائسة، تمرضين جثة فيها الموت أكثر مما فيها من الحياة؟ وإلى متى؟

ومع كل هذا الكلام تسرب إليها شيء من ضجر وشيء من يأس، فالتفتت إلى زوجها المُبتلى أيوب، وقالت تسأله:

- (إلى متى يعذبك ربك؟ أين النعيم، وأين المال؟ وأين الأولاد؟)

عجب أيوب واستغرب مما سمع من زوجته (رحمة) فأنكر ذلك عليها، فخاطبها معاتبا ولائما:

- (لقد سول لك الشيطان يا امرأة، فجعلك تعترضين على قضاء الله وقدره!).

فقالت رحمة تترجاه وتحضه:

- (هلا دعوت الله أن يكشف حزنك، ويكشف بلاءك؟)

فقال أيوب يسألها:

- (كم لبثت في الرخاء؟)

قالت:

- (سبعين عاما)

فسألها:

- (وكم لبثت في البلاء؟)

قالت:

- (سبع سنين)

فقال أيوب:

- (إني أستحيي أن أطلب من الله أن يرفع بلائي، وما قضيت فيه مدة رخائي).

ثم توعدها بعقاب فقال:

- (ولئن شافاني الله من هذا البلاء وأعطاني قوة لأضربنك مئة سوط، على سوء الظن بالله).

فقبلت ما سمعته منه واحتملته، ولكنها فوجئت وأوذيت كل الأذى عندما سمعت أيوب يقول لها جازمًا:

- (وحرام علي بعد اليوم أن أقبل منك طعاما ولا شرابا، فاغربي عني حتى يقضي الله أمرا كان مفعولًا).

وأخيرا أمسى سيدنا أيوب وحيدا، وسط آلامه وأحزانه، وما بقي معه إلا ربه، وكذلك انقطع عنه رجل واحد من المؤمنين الثلاثة الذين آمنوا بدعوته،إذ ترك هذا الرجل أيوب.

سأل فارس مدهوشا:

- وماذا فعل النبي بعد أن أصبح وحيدا ياجدتي؟

- حين ترك أيوب أحدُ الثلاثة الذين آمنوا به، تألم أيوب ألما شديدا، وحزن حزنا شديدا، وقال:

- (إن الله لا يبتلي الأنبياء!).

فدعا ربه بتضرع وخشوع،عارضا ما ناله من البلاء والكرب والشدة:

- ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

الأنبياء: ٨٣.

فوكل الأمر لله ولم يسأله الشفاء، وذلك تأدبا من أيوب مع الله وتسليما بقضائه.

ثم إن إبليس اللعين بعد فشله الذريع في إغواء أيوب، عاد فحاول أن يشغل أيوب عن صلاته إذا صلى، فكان يتمثل له بهيئة صنم فينتصب أمامه فجأةً في أثناء صلاته.

وهنا لم يطق أيوب صبرًا على هذا، فإذا كان قد صبر على فقد ماله، وأولاده وبناته، وصبر على ذهاب صحته وعافيته، فإنه لا يرضى أن يصبر على الشرك.

فنادى ربه متضرعًا إليه قائلًا:

- ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴾ ص: ٤١ .

استجاب الله سبحانه دعوة نبيه أيوب، فناداه نداء كريمًا وهو أرحم الراحمين، أن يضرب الأرض برجله، فانفجرت له عين ماء صافية، فاغتسل منها فذهب كل مرض كان قد دخل جسده، وعادت لأيوب صحته وجماله، وألبسه الله حلةً من الجنة.

بعد أن طرد أيوب زوجته (رحمة) شعرت بالساعات التي أمضتها بعيدًا عنه طوالا كأنها سنين، فتلك هي المرة الأولى التي يغصب أيوب عليها، وتلك هي المرة الأولى أيضا التي فارقته فيها كل تلك المدة الطويلة.

لقد حزنت (رحمة) لأنها تركت أيوب وحده نهارا كاملا، وأخيرا لم تستطع على فراق أيوب صبرا، فرجعت إليه مسرعة قلقة، وحين اقتربت من المكان الذي كان أيوب فيه دهشت وتحيرت!!.

قال أزهر دون صبر:

- لماذا؟

- لأنها لم تجده هناك، فعادت والهة حزينة تبحث عنه ولا تدري أين

تجده، وهي تعرف أنه لا يستطيع سيرًا ولا يطيق حراكًا، فماذا حل به، وبينما هي قلقة حائرة خائفة إذ رأت رجلا في الطريق، يفيض شبابًا وقوة وصحة، ويرتدي حُلة ما رأت بمثل جمالها، فأقبلت عليه وهي لا تعرفه وسألته وقلبها يكاد يتمزق من الحزن على زوجها أيوب وقالت:

- (أيها الرجل! هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان هنا؟).

فسألها الشاب:

- (وهل تعرفينه إذا رأيته؟).

قالت بلهفة:

- (نعم، وكيف لا أعرفه؟!).

فتبسم الرجل وقال ل (رحمة):

- (ها أنا هو!).

فعرفته من ابتسامته، فأقبلت عليه وعانقته، وهي تشكر الله وتحمده على نعمته وفضله، ليس سيدنا أيوب وحده الذي أعاد الله إليه شبابه، فها هي سيدتنا (رحمة) الزوجة الكريمة قد ردَّ إليها شبابها، فبدت وهي تقف قرب زوجها أيوب، كأنهما عريسان سعيدان في زفافهما، وأحيا الله سبحانه أبناء أيوب كلهم، ووهب له مثلهم من زوجته المخلصة رحمة، ومتع الله أيوب بصحته وماله وقواه، حتى كثر نسله فصار أهله ضعف ما كانوا، حتى ولدت زوجته له ستة وعشرين ولدا ذكرا.

وتذكر النبي عندما قال لزوجته رحمة جازما: (وحرام علي بعد اليوم أن أقبل منك طعاما ولا شرابا، فاغربي عني حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا)، ولكن يمين أيوب لا بد من أن يبر بها، تلك اليمين التي أقسم بها

عندما غضب على زوجته، ما أشد حيرة أيوب الآن! بعد أن أذهب الله عنه كل بلائه، فكيف يستطيع أن يضرب رحمة مئة سوط؟ ظل محتارا وعجبا!!.

غمرتنا جميعا مشاعر الحزن عليها، وقلنا بصوت واحد:

- وهل بر النبي عندما أقسم على زوجته بهذا العقاب؟

- وهنا جاءت رحمة الله لتنقذ أيوب من حيرته وحرجه، وهي لا تستحق غير الحب والود؛ فأوحى الله إلى أيوب بأن يأخذ بيده حزمة (ضغثا) من القش فيها مئة قشة ليضرب بها رحمة ضربة واحدة بتلك الحزمة، وبهذا بر أيوب بيمينه.

بلغ أيوب من العمر خمسًا وتسعين سنة، وحضره الموت وهو في الشام حيث أمضى كل عمره فيها، وبعد موته بعث الله ولده بشر بن أيوب نبيا، وسماه (ذا الكفل).

سعدنا جدا ونحن نسمع حكاية بطل الصبر النبي أيوب، ولم أستطع أن أمنع نفسي من التساؤل، وقلت:

- ذو الكفل؟ ما معنى هذا الاسم؟

ردت جدتي برضا وهدوء:

- قبل أن أجيبك على سؤالك، لنتعرف أولا على حكاية ذي الكفل، ومن خلالها ستعرفين لماذا سمي بهذا الاسم، لما كبر (اليسع) فكر في أن يختار رجلا يستخلفه على الناس، ثم دعا الناس وجمعهم ذات يوم، وقال لهم: "من يتقبل مني بثلاثة استخلفه".

وأصغى الناس الحاضرون ليسمعوا هذه الشروط الثلاثة التي تجعل القادر عليها خليفة بعد (اليسع)، وفي أثناء حياته أيضا، فقال (اليسع):

- يصوم النهار، ويقوم الليل، ولايغضب.

إنه طلب أشبه بالمستحيل، فسكت الناس ولم يجيبوا، لكن رجلا منهم متواضع الهيئة فقير الحال، تزدريه العين إذا وقعت عليه، قام من مكانه وقال لليسع بكل ثقة وتواضع.

- أنا.

فتح الناس أعينهم ولم يكادوا يصدقون آذانهم، لكن (اليسع) سأل الرجل المتواضع كأنه يريد أن يتأكد من قوله وعزمه:

- أنت تصوم النهار، وتقوم الليل، ولاتغضب؟

قال الرجل المتواضع بثقة ظاهرة:

- نعم.

ثم رد اليسع ذلك الرجل في ذلك اليوم، وتفرق الناس.

وفي اليوم الثاني فعل (اليسع) مثلما فعل أمس، وكما قال أمس، فقام إليه الرجل نفسه بعد أن سكت الحاضرون كلهم، وقال:

- أنا.

وهنا استخلفه اليسع، وجعله يعمل في أمور الناس وهو يراقب عدله فيهم ورفقه بهم يوما بعد يوم، لكن إبليس اغتاظ غيظا شديدا فحرض الشياطين على الرجل الصائم القائم، الكاظم غيظه أبدا.. قال إبليس للشياطين يؤزهم على فتنته:

- عليكم بفلان.

فأقبلت الشياطين على الرجل الصالح، وحاولوا معه كل حيلهم وإغوائهم، لكنه ظل كما هو صائما قائما كاظما لغيظه لا يغضب وهنا صاح إبليس:

- دعوني وإياه!!

هتفنا هنا من دون إرادة:

- إبليس اللعين أيضا!.. وماذا فعل له؟

- انطلق ليفتن الرجل الصالح ويغويه، وكان الرجل الصالح لا ينام إلا في وقت القيلولة من ظهيرة كل يوم ولا ينام فيما عدا ذلك.. فجاءه إبليس في هذا الوقت نفسه وقد تمثل في صورة شيخ كبير فقير، فدق الباب على الرجل الصالح وهو في نومة قيلولته، فقال الرجل الصالح:

- من هذا؟

قال إبليس المتنكر:

- شيخ كبير مظلوم!

فقام الرجل الصالح، وفتح الباب فأدخل الشيخ، فأخذ هذا يقص عليه حكاية كاذبة فيقول:

- إن بيني وبين قومي خصومة، وإنهم ظلموني، وإنهم فعلوا بي كذا وكذا.

وظل إبليس اللعين يطيل في الحديث ويكثر في الكلام، حتى فات وقت القيلولة كله واقترب المساء، فقال الرجل الصالح للشيخ المزيف وهو لا يعلم من أمره شيئا:

- إذا رحت آخذ لك بحقك.

ومضى الرجل الصالح إلى مجلسه في المساء وانتظر الشيخ، فلم يره بين الناس، وفي صباح اليوم الثاني جلس الرجل الصالح يحكم بين الناس ويقضي في أمورهم وهو ينتظر مجيء الشيخ إليه لكنه لم يأت.. وعندما رجع الرجل الصالح إلى بيته، وذهب لينام قيلولته، جاءه الشيخ نفسه، وكررعليه اليوم ذات ما قاله بالأمس، فسأله الرجل الصالح عن السبب الذي منعه من المجيء كما وعده، فقال إبليس المتنكر بهيئة شيخ كبير:

- إن قومي أخبث قوم! إذا عرفوا أنك قاعد للقضاء وأردت المجيء إليك قالوا "نحن نعطيك حقك"، أما إذا ذهبت من مجلسك فإنهم يجحدوني .. وينكرون حقي!

فقال له الرجل الصالح خيرا وأمره أن يأتيه عندما يجلس في المساء للقضاء.

ولم يستطع الرجل الصالح النوم في هذا اليوم أيضا.. ثم كرر الشيخ الخبيث مكره ولم يأته في المساء، ثم قال الرجل الصالح لبعض أهله بعد أن أخذه النعاس وأضر به:

- لا تدعوا أحدا يقترب من هذا الباب حتى أنام!

ونام الرجل وقت القيلولة، لكنه فوجئ بالشيخ يدخل عليه بعد أن دق عليه الباب من الداخل!

فتعجب الرجل الصالح، فصاح على بعض أهله:

-يافلان! ألم آمرك بألا يدخل علي أحد؟

فقال له أحد أهله:

- (أما من قبلي، فوالله لم يأتك أحد! فانظر من أين أتيت؟).

قام الرجل الصالح إلى بابه فوجده مغلقا كما أغلقه بنفسه، والشيخ معه داخل البيت، فأدرك في الحال أنه إبليس جاء ليغويه، فقال له:

- أعدو الله؟ إبليس؟!

فقال إبليس اللعين:

- نعم، أعيتني في كل شيء، ففعلت كل ما ترى لأغضبك!

ولهذا سمى الله هذا الرجل الصالح "ذا الكِفْل" لأنه تكفل بأمر فوفى به!

ثم استدارت جدتي نحوي قائلة:

- الآن عرفتِ يا مريومة لماذا سمي بذي الكفل؟

قلت لها بزهو:

- نعم يا جدتي الحنونة، إنا على يقين بأنني أسعد الناس اليوم وكل الأيام الماضية!

استغربت جدتي من حديثي وهي الأخرى سألتني:

- لماذا هذا الكلام يا عزيزتي؟

أجبتها بدلال:

- لأننا نسمع منكِ بين الحين والآخر حكايات من خلالها نتعرف على قصص الأنبياء، ومن خلالها نكتشف أشياء مهمة.

(تسونامي)

فالليل يعقبه الصباح، والشتاء يعقبه الربيع، هذه سنة الحياة، رحل الشتاء البارد عنا، ووصل فصل الربيع الدافئ، حط أزهاره الملونة على الأرض، وهبت نسماته العليلة على الأرض الفسيحة والتلال المترامية على أطراف المدينة التي تغطي سورها الآشوري القديم الذي يعيد في الأذهان تلك الحضارة العريقة وسورها الحجري المزين بالنقوش والرؤوس الحيوانية وعلى بوابات المدينة نقش الثور المجنح وغيره من المنحوتات الحجرية التي تعود لتلك الحقبة الزمنية من تاريخ المدينة.

وفي ليلة من تلك الليالي السعيدة، كنا جالسين نتابع ما يدور من أخبار على شاشة جهاز التلفاز، ظهر تقرير إخباري عن إحدى الدول الآسيوية التي قد صف بها إعصار وفيضانات اقتلعت الأشجار والبيوت والسيارات.

تملكنا العجب والدهشة وقلت بأعلى صوتي:

- ما هذا؟!

رد أبي وقال لي:

- هذا ما يسمى في تلك البلدان (تسونامي).

جدتي كانت جالسة على المصطبة الخشبية متكئة على أحد مساندها وقالت:

- تبارك الله منفردًا في سلطانه! مستبدا بعظمته وجبروته! لا تعجبوا ولا تتعجبوا فإن لكلامي هذا شأنا حزينا!

سألتها:

- ماذا تقصدين من كلامك هذا يا جدتي؟

أجابتني متنهدة قائلة:

- طوفان سيدنا نوح عليه السلام، أبو البشرية الثاني.

قفز إلى ذاكرتي سؤال في الحال:

- وهل كان الطوفان بحجم هذا التسونامي يا جدتي؟

ردت الجدة بحزم وقالت:

- بل أكثر وأكثر يا عزيزتي!! فما أشد اغترار الإنسان بالحياة! لقد أمضى الله القضاء بما شاء، فليس لهم من مفر ولا عاصم!

أخي أزهر هو الآخر قال بلهفة:

- احكي لنا حكاية طوفان نوح يا جدتنا الغالية؟

ردت والابتسامة تملؤ وجهها وقالت:

- "وفي كل يوم، وكل ليلة، وشهرا بعد شهر، وعاما بعد عام، ظل نوح يدعو قومه، ويرغبهم في عبادة الله وحده، ويبين لهم ضلالهم في عبادة الأوثان والأصنام، فدعاهم سرا وجهرا، ودعاهم ليلا ونهارا، ولكن مع استمراره في دعائه لهم، كانوا يزدادون عنادًا وإصرارا على الكفر؛ فكانوا يهربون من نوح إذا أقبل عليهم ويعرضون عنه، ويجعلون أصابعهم في آذانهم يسدونها بذلك كي لا يسمعوه، ويغطون رؤوسهم ووجوههم بثيابهم من أجل ألا يسمعوا كلامه ولا ينظروا إليه، ونوح يجهر بدعوته لهم، على رؤوس الأشهاد، واستمر يدعو قومه طيلة قرن من الزمان، لكنه لاحظ أن عدد المؤمنين لا يزيد، فيما كان عدد الكافرين يتزايد على مر السنين والأجيال.

لقد كانت معركة نوح مع قومه الكافرين أطول معارك الإيمان زمنًا، فقد مكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة، فما آمن به إلا القليل، وقيل إنهم كانوا ثمانين شخصًا منهم نساؤهم، وقيل إنهم كانوا اثنين وسبعين وقيل كانوا عشرة!

وكان الكافر من قوم نوح ينطلق بابنه إلى نوح ويقول:

- يا بني احذر هذا فإنه كذاب. وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية.

فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك.

ولم يكتفوا بتكذيب نوح وإيذائه بل قالوا إنه مجنون، فما بقي أمام نوح بعد كل هذا إلا أن يدعو ربه بأن يهلك قومه الكافرين.

أمر الله سبحانه نوحًا أن يصنع سفينةً عظيمةً من ألواح الخشب وألياف الشجر، وأوحى الله إلى نوح بألا يشفع في قومه الكافرين.

شرع نوح بصنع السفينة في مكان مرتفع عن الأرض، وكان البحر بعيدا جدا، وليس هناك أنهار يمكن أن تجري السفن فيها، وحين علم الكافرون من قوم نوح أنه يبني سفينة عظيمة انفجروا ضاحكين، وسخروا منه! فكان كلما مرت عليه جماعة من كبراء قومه سخروا منه وضحكوا، وقالوا:

- يا نوح، كنت بالأمس نبيا، وأصبحت اليوم نجارا؟!

فيرد عليهم بيقين المؤمن الواثق بأمر الله:

﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ هود: ٣٨ ، ولم يكترث بسخرية قومه، فأتم صُنع السفينة كما أمره الله".

الجميل بالأمر، فارس أخي الصغير أخذ يتندر ويسأل جدتي، حينما قال: "بعد أن أتم صنع السفينة ماذا فعل النبي نوح عليه السلام؟".

ردت عليه بصوتها المتهدج:

- "بقي ينتظر أمر الله سبحانه، وبعد ما انتهى نوح من بناء السفينة، بدأ يترقب أمر الله سبحانه في الطوفان، وكان الله قد أخبره أن علامة بداية الطوفان هي ثورة بركان معروف في ديار قوم نوح، وفار الماء من التنور، وقد جعل ذلك علامة لنوح وموعدا لهلاك الكافرين من قومه! فصارت الأرض عيونًا تفور ماءً، وهطلت الأمطار بغزارة شديدة، وكانت السماء تزداد غيوما وأمطارا وبرقا، فصار المطر يهطل بغزارة! ماء منصب بقوة وغزارة كأنه القرب الكبيرة تصب ماءها على الأرض صبا!

جعل الله الأرض كلها عيونا متفجرة بالماء، فالتقى ماء السماء وماء الأرض على حال قد قدرها الله في الأزل وقضاها بإهلاك المكذبين غرقا.

حمل نوح في السفينة كل ما كان يعيش في أرض قومه من حيوانات شتى زوجين اثنين من كل نوع، ذكرا وأنثى، من الطيور والدواب والبهائم كلها، كذلك أمره الله سبحانه أن يحمل في السفينة أهله كلهم وأولاده والنساء، إلا من حكم الله بهلاكه، كما أمره الله أن يحمل أيضا الذين آمنوا معه من اتباعه، وكان عدد المؤمنين معه قليلا جدا،وقال نوح:

﴿ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ هود: ٤١ .

مضت السفينة تشق الأمواج الهائلة، تحمل نوحا والذين آمنوا معه، فأشرف نوح من فوق ظهر السفينة، فوقعت عينه على ابنه (كنعان) الذي لم يركب مع المؤمنين، فجاشت في نفس نوح عاطفة الأبوة الممتلئة بالرحمة والإشفاق على ولده المنكوب باستمراره على عبادة الأوثان، فصدر عن نوح ذلك النداء النبوي الناصح، والأبوي الرحيم، وهو يرجو في لحظة الخطر

تلك أن يبلغ نداؤه الأبوي قلب ابنه، فيغمره بالإيمان، فناداه أمرا جازما لكي لا يترك له مجالا للتردد".

قاطعها أزهر:

- ماذا قال لابنه:

قالت:

- قال له : ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ هود: ٤٢.

سأل أزهر ثانية:

- وما كان رد كنعان على أبيه؟

- رد كنعان الجاهل الذي أعماه الكفر وأغواه الشيطان، وما كان أسوأ ظنه هذا! إذ حسب أنه لو صعد إلى رأس الجبل فإنه سيتحصن به من الغرق، متوهما أن الماء لن يصل إلى رؤوس الجبال.

بعد شيء من التردد قلت:

- فقط ابنه كنعان الذي رفض الصعود إلى السفينة؟

قالت:

- "كلا، شخصان هما اللذان قضى الله بهلاكهما، فهما (كنعان) ابن نوح، و(واعله) زوجته، وهكذا جاء الطوفان وأخذت تتعالى أمواجه بين الجبال، كانت من المعجزات التي أيد الله بها نبيه نوحا إذ كيف يمكن لسفينة مصنوعة من ألواح الخشب والحبال أن تحمل هذا العدد من الناس والحيوانات وسط هذا الموج العاتي كالجبال، وكان صنع هذه السفينة تحت نظر الله سبحانه لسيدنا نوح، أي كما يأمره.

وأوحى اللهُ إلى نوح ألا يشفع في قومه الكافرين، لأن الله مُهلِكُهم لا محالة غرقا بالطوفان".

تسللت إلى خاطري فكرة حين عبرت في رأسي وهي:

- وماذا حدث بعد أن أنهى الله تبارك تعالى الطوفان؟

قالت:

- "هبط ركب المؤمنين من السفينة، ووطئت أقدامهم الأرض مرة أخرى، وكانت أرضا طاهرة نقية غسلها الله سبحانه من أدران الكفار وأوثانهم وعباداتهم الباطلة؛ فاستقبلت الأرض الطاهرة المؤمنين بخير ما أنبت الله فيها من ثمار يانعةٍ وزروع وفيرة وخيرات مباركة.

أما المؤمنون الذين شكروا الله على نجاتهم من الكفر والطوفان، فراحوا يعبرون بالعمل الصالح عن شكرهم لله وحمدهم له، فعمروا الأرض وزرعوها، وبنوا المدن وشيدوا القرى.

وكان من الذين هبطوا من السفينة ثلاثة رجال: (سام) و(حام) و(يافث)، وهم وحدهم الذين بقوا من أبناء نوح عليه السلام.

وبعد موت نوح تفرق الإخوة الثلاثة في جهات الأرض المختلفة ثم صار كل واحد منهم أبا لذرية كثيرة وأبناء كثيرين ولدوا جيلا بعد جيل.

ومن هذه الذرية التي بقيت بعد هلاك الكافرين، تكاثرت أمم الأرض كلها وتشعبت.

وبعد مئات السنين تكونت قبائل وأحياء كثيرة في شتى بقاع الأرض".

(زقزقة العصافير)

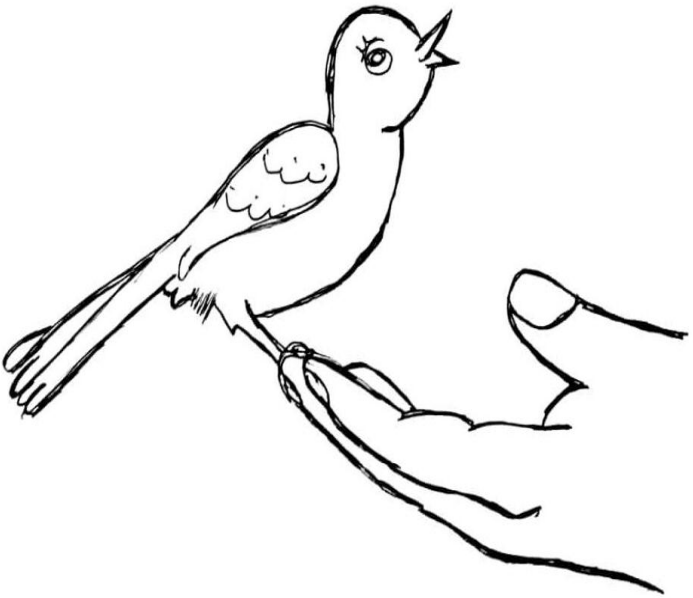

ينزل الربيع ضيفا على مدينتي الجميلة، ويجمع الشتاء ملابسه ويطوي بقايا البرد والغيوم والمطر في حقيبته ويرحل إلى بلاد أخرى، فالربيع عطر الأجواء وأشجار العرموط والبرتقال تغرق في زهور بيضاء تنشر أريجا منعشا، فالكون يمنحنا الجمال والألوان.

بينما كنت أقضي سويعات العصر والغروب متصفحا دروسي تحت أشجار حديقتنا، وإلى جانبي إخوتي، أرشد وفارس قد انتهيا من قراءة دروسهما وكتابة واجباتهما المدرسية. وانضمت إلينا الجدة في جلسة حلوة لتحتسي فنجان قهوتها التي اعتادت أن تحتسيها عصر كل يوم.

فقد كان السكون مطبقًا في الحديقة ولا أثر لأي صوت سوى لزقزقة العصافير فوق الأشجار والبلابل تغرد أيضا على أغصان الأشجار المنتشرة في حديقتنا.

وتلك الزقزقة أثارت انزعاج راشد الذي صاح بأعلى صوته:

- آه من تلك العصافير!!

نهرته جدتي قائلة:

- العصفور طائر ضعيف له قوة تحمل محددة لا يستطيع الطيران كثيرا، إنه ربما يسبح للرحمن!

صاح فارس بأعلى صوته مستغربا:

- العصافير تسبح للرحمن؟!

ردت الجدة وبثقة تامة:

- نعم يا ماهر في ركوب الخيل.

استغرب أخي فارس وأخذ ينظر إلي وإلى أخي أزهر، وصرنا نتبادل بالنظرات فيما بيننا، فقال لها أزهر:

- هل نسيتِ يا جدتي، هذا فارس، وليس ماهرا!

قهقهت الجدة حتى كاد نفسها ينقطع، وقالت:

- أعرف أسماءكم جيدا يا أحفادي الغاليين، لا زال عقلي سليما، فأنت أزهر، وهذه أختكم الكبرى خادمة الرب!

زاد استغرابي هذه المرة أكثر، فتلعثمت وقلت على عجلة:

- أنا مريم يا جدتي، مريومة!

قالت:

- نعم يا مريومة، فهذا معنى اسمك. وقبل قليل ناديت فارس بمعنى اسمه.

فرحت بمعنى اسمي وكذلك فارس، ولم يبق سوى أن يعرف أزهر معنى اسمه أزهر، فقال لها:

- وما معنى اسم أزهر يا جدتي؟

- معناه.. اللون الأبيض الصافي المشرق.

صمت للحظات وظل معنى اسمي في ذهني فربما سأسأل جدتي أكثر عن هذا المعنى، لأننا كلنا شوق لمعرفة كيف أن الطيور تسبح للرحمن، فقلت لها:

- حسنا يا جدتنا الغالية، احكي لنا كيف تسبح الطيور لله الباري ﷻ؟

أجل يا أحفادي الحلوين، حيث كان النبي داود الحكيم عليه السلام يكلم الطيور.

باندهاش قلت:

- يكلم الطيورا!.. كيف؟

قالت جدتي:

- سأحكي لكم كيف، لكن قولوا لي هل أتممتم واجباتكم المدرسية؟

قال فارس على الفور:

- نعم.

ومن بعده قال أزهر نفس الجواب، وكنت أنا الأخيرة حينما قلت لها:

- نعم يا جدتي لقد أتممنا واجباتنا المدرسية، لأننا منذ زمن كنا في الحديقة، نتصفح الكتب ونقرأ ونكتب الواجبات.

ردت الجدة وقالت:

- حسنًا، اقتربوا مني.

تحلقنا حول الجدة الماهرة في سرد الحكايات عن الأنبياء والرسل.

- "بعد أن امتلك النبي الملك داوود عليه السلام جميع البلاد على الفرات، إذ حارب الأقوام الذين على الفرات ونصر عليهم، وشرق الأردن، فقد أتاه الله مُلك طالوت، ونبوة صموئيل. وكان ذلك الفضل واسعا وعظيما، فقد قوى الله مُلك داوود فثبته بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود، وفضل الله تعالى على داوود هو النبوة والزبور، وتسخير الجبال والطير، وإلانة الحديد، وتعليمه صنع الدروع.

فقد سخر الله الجبال لداوود تسبح معه في المساء والصباح، وتسبيح الجبال حقيقة، وكان معجزة لداوود عليه السلام.

وسخر الله الطير لداوود، فكانت تسبح بتسبيحه وترجع بترجيعه، إذا مر به الطير وهو سائح بالهواء فسمع داوود بترنيم بقراءة الزبور، يقف في الهواء ويسبح معه، وكذلك الجبال الشامخات كانت ترجع معه وتسبح تبعا له.

هذا ما كان من شأن نبي الله داوود، أما بشأن ابنه سليمان الغلام الحكيم".

قال أزهر على عجلة:

- لماذا سمي بالغلام الحكيم؟

ردت جدتي وأجابته قائلة:

- لأنه ورث في النبوة والملك. وقد أتاه الله الحكمة منذ طفولته حيث شارك أباه في قضية حكم بها وانتهى منها.

بصوتٍ واحد قلنا:

- ما هي هذه القضية؟

- "قد آتاه الله الحكمة منذ طفولته، حتى أنه شارك أباه في قضية حكم بها وانتهى منها، فعاد داوود وأخذ برأي سليمان فيها وحكم به.. وكانت تلك القضية خلافا في شأن الحرث أي الزرع! وذلك أن رجلين دخلا على داوود، وكان ابنه سليمان عنده، وهو غلام في الحادية عشرة من عمره، وعرضا قضيتهما على داوود، وكان أحد الرجلين صاحب زرع (حرث)، فجاءت غنم الرجل الآخر إلى هذا الزرع، وكان كرمًا قد تدلت عناقيده أي

تفرقت، وانتشرت في الزرع ليلا بلا راع، فَرعته وأفسدته، فلم يتبق منه شيئا، فقال داوود لصاحب الزرع:

- ((اذهب وخذ الغنم كلها فهي ملك لك عوضا عن زرعك)).

فخرج الرجلان ولقيا سليمان وهو بالباب، فأخبراه بما حكم به أبوه، فدخل سليمان على أبيه وقال له:

- يا نبي الله لو حكمت بغير هذا كان أرفق للجميع.. وكان الله سبحانه قد علم سليمان وألهمه الحكم في هذه القضية، فقال له داود:

- ((وكيف تقضي بينهما؟)).

قال سليمان:

- ((تدفع الغنم إلى صاحب الزرع، وينتفع بلبنها وصوفها ونسلها، ويأخذ صاحب الغنم الأرض، فيصلحها ويبذرها، ويجعلها كما كانت قبل أن تفسدها الغنم، فإذا خرج الزرع ردت الغنم إلى صاحبها، والأرض إلى ربها)).

فقال داود لولده سليمان:

- ((وفقت يا بني، القضاء ما قضيت يا ولدي)).

وكان داود يستشير سليمان في كثير من أموره مع صغر سنه! وذلك لرجاحة عقله وحكمته؛ ولهذا أوصى له بالخلافة بعده دون بقية بنيه.

ابتهجت وأنا أسمع من جدتي هذا الكلام عن النبي الحكيم وهو صغير، ودفعني تساؤل آخر:

- وهل هناك من حكاية أخرى للنبي داود؟

- "نعم، حتى أنه كانت لا تمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلا ونهارا. وكان داوود صواما قواما، وكان شجاعا،

وكان يصوم يوما ويفطر يوما، وقد أنزل الله سبحانه الزبور على داوود، ويسمى الزبور بالمزامير أيضا، وفيه المواعظ والحكم، وقد أنزل عليه في شهر رمضان، ويتضمن تسبيح الله والثناء عليه، والتضرع له، وكان داود عليه السلام جميل الصوت. وكان لطيب صوته بتلاوة الزبور أنه إذا ترنم بها تقف الطيور في الهواء فتجاوبه وترد على الجبال تأويبا.

ولم تكن في الزبور أحكام بل فيه تقديس وتحميد وثناء على الله عز وجل.

وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس، وفي ذات يوم فوجئ داود بشخصين يتسوران المحراب! يعلوانه ويتسلقانه، فخاف منهما وارتعد لأنهما دخلا عليه بغير إذن، ودخلا من غير باب، وفي وقت كان خصصه للعبادة، حيث تسلقا سور غرفته التي كان يتعبد فيها ونزلا من إعلاه إليه، لكنهما بادرا إلى طمأنته وخاطباه مبينين له أنهما فوجان تعدى بعضهما على بعض، فقالا له:

- ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ ص: ٢٢.

وطلبا منه أن يحكم بينهما بالعدل، من غير جور وشطط ولا ظلم في الحكم.

ثم قال أحد الخصمين:

- إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة، وأوضح الخصم مشكلته مع أخيه أو صاحبه فأخبر داوود بأن صاحبه قد طلب منه أن يملكه نعجته ويتنازل له عنها، ويجعلها تحت كفالته، وأنه غلبه في المحاجة، وأتى فيها بما لم يطق رده، وشدد عليه في القول وأغلظ.

فرد عليه داوود بأن خصمه قد ظلمه بهذا الطلب حين أراد انتزاع نعجته منه ليكمل ما عنده من نعاج إلى مئة، وقال داوود:

- ﴿ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ ﴾ ص: ٢٤.

ثم بين داوود لهذا المتخاصم أن كثيرين من الشركاء ليتعدى بعضهم على بعض إلا المؤمنين الذين يعملون الصالحات، فإنهم لا يبغون، وهم قليلون، وقد قضى سيدنا داوود في هذه الخصومة، بعد سماعه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثا، ولم يطلب إليه بيانا، ولم يسمع له حجة، ولكنه مضى يحكم بقوله:

- ﴿ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ ﴾ ص: ٢٤.

فعاتبه الله سبحانه على ذلك ونبهه إلى ضرورة تثبت القاضي من حكمه وسماعه للخصم الآخر.

وعلم داوود وأيقن أن الله سبحانه قد اختبره (فتنة) بهذه الحادثة؛ فأقبل على ربه مستغفرا، وخر ساجدا لله تعالى، ورجع إليه بالتوبة والندم على ما فرط منه!

وقد استجاب الله له فقال سبحانه:

- ﴿ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٢٥ ﴾ ص: ٢٥ ".

أخي فارس من شدة شوقه للحديث عن النبي داوود راح يسأل جدتي:

- هل كان هناك حدثٌ مهم قام به عندما كان فتى صغير؟

بمحبةٍ وفرح كبيرين قالت له جدتي:

- "سؤال ذكي من فارس الغالي، أوحى الله سبحانه إلى نبيه صموئيل أن يأمر طالوت ملك بني اسرائيل بأن يتوجه إلى قتال جالوت ملك العماليق، فأخذ طالوت بإعداد جيشه، حتى أصبح تحت إمرته ثمانون ألف جندي، فخرج بجيشه وانفصل عن بيت المقدس، وسار بهم في أرض مقفرة ثلاثة أيام باتجاه العدو، ساروا في حر شديد وقيظ لافح وظمأ مُهلِك وأعد طالوت جيشه للمعركة وحدد مواقع رجاله في ميدانها.

وكان على مقدمة الجيش رجل صالح اسمه (أبشي بن عوفيذ) ينتهي نسبه إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن أبراهيم، وكان مع (أبشي) أولاده الستة وهم رجال مؤمنون أشداء، وداوود أخ لهم صغير معهم، يُجيد رمي الحجارة بالمقلاع ويتقنه إتقانا تاما، اسمه داوود.

فلما تواجه الجمعان، برز جالوت الكافر الرهيب، ودعا إلى نفسه يطلب المبارزة، فلم يبرز إليه أحد من جيش طالوت لأنهم كانوا يعرفون عن قوته وشدة بأسه،ولما رأى داوود أن أحدا لم يخرج لمبارزة جالوت فتقدم إلى طالوت يطلب الإذن له بمبارزته، فرده القائد لصغر سنه وقصر قامته مقارنة بقامة بجالوت المديدة، لكن داوود الشاب أصر كل الإصرار، وأظهر من العزم ما جعل قائده يأذن له بالمبارزة.. وألبسه طالوت لأمة الحرب فلم يعرف داوود أن يمشي فيها فخلعها. ثم برز داوود وهو يحمل مقلاعه، وتقدم إلى جالوت، فقال له:

- ارجع فإني أكره قتلك!

فرد داوود بجرأة وثبات:

- ولكني أحب قتلك.

فالتقط حجرا مدببا وجده عند قدميه فوضعه في مقلاعه، ثم أدار داوود مقلاعه ثلاث دورات ثم قذف الحجر باسم الله المنتقم الجبار، فخرج الحجر من المقلاع كما تخرج القذيفة من فوهة المدفع، وانطلق الحجر صوب جالوت، وكانت عناية الله تسدد الحجر، حتى انقض على رأس جالوت ففلقه فلقا فخر صريعا في الحال كالجمل المذبوح، فدب الرعب والفزع في قلوب جيش جالوت، وفر جنوده مهزومين، لا يلوون على شيء.

أما داوود فانطلق إلى جثة جالوت، وفصل رأسه عن بدنه وعاد إلى ملكه حاملا رأس جالوت، وقدمه إلى الملك طالوت.

وتقدم طالوت بجيشه المؤمن منتصرا، ورجع إلى اسرائيل، إلى ديارهم وأموالهم المنهوبة، وفكوا أسر أولادهم من جيش جالوت المهزوم".

ظهرت على وجوهنا سعادة غير عادية، كان الوقت يمر ليعلن بأن كل لحظة تعلن عن حكاية تدفعنا إلى التساؤل، فقلت لجدتي:

- وماذا عن ابنه سليمان؟

- "عشرون عاما أمضاها سليمان نبيا لبني اسرائيل وملكا عليهم، ولكنه وجد من بني اسرائيل عنادا كبيرا وعصيانا شديدا، وبعد هذه العشرين عاما دعا سليمان عليه السلام ربه سبحانه وتعالى أن يهب له ملكا فريدا واسعا لم يعط لأحد من قبله، ولن يوهب لأحد من بعده! كل هذا الملك الواسع أراده سليمان لكي يزيد ذلك هيبة في مملكته، ويزيده رهبة في قلوب بني اسرائيل كي يطيعوه ولا يعصوه، فاستجاب الله دعوة سليمان هذه،

فكان يعرف منطق الطير وأصوات جميع الحيوانات، وأعطاه الله من كل شيء من خيرات الدنيا التي تعطى للملوك العظماء، وسخر الله الريح لسليمان فتسير بأمره لينة طيبة حيث قصد سليمان.

وكذلك سخر الله لسليمان ريحا شديدة الهبوب فتسير بمشيئته وإرادته إلى أرض الشام المباركة بكثرة الأشجار والأنهار والثمار، كانت الريح تغدو بسليمان صباحا مسيرة شهر، وتروح به مساء مسيرة شهر.

لقد سخر الله له الريح تقطع به المسافات الشاسعة ساعات معدودة، تحمله مع جنده فتنتقل به من بلد إلى بلد، فأجرى الله لسليمان النحاس، كما ألان الحديد لداوود.

وكذلك الجن يعمل بين يديه، يعملون له أشياء يعجز عنها البشر! فيعملون قصورا شامخة ومساجد وتماثيل عجيبة من النحاس والزجاج، وهي صور للملائكة والأنبياء والصالحين من زجاج أو نحاس أو رخام، وكان اتخاذها في شريعة سليمان جائزا، أما في شريعتنا فمحرم.

وكذلك يعملون له قصاع كبيرة تشبه الأحواض، هذا فضلا عن قدور كبيرة ثابتات لا تتحرك بسبب كبرها وضخامتها معدة لطبخ الطعام.

وأتم بناء بيت المقدس في فلسطين، فبناه بناء محكما، وهو الذي بدأه أبوه داوود.

كما بشر قومه بظهور سيدنا محمد ﷺ، وأخبر سليمان أهل مكة أن محمدًا هو سيد الأنبياء وخاتم المرسلين، وكان قد نقش خاتم سليمان بن داوود عليهما السلام: ((لا إله الا الله محمد رسول الله))".

دهش الجميع من هذا الكلام عن النبي على لسان جدتي وملأنا

العجب كذلك، حتى قلت لها من دون تفكير:

- وكيف كان يكلم الطيور والحيوانات؟

- "كان يتكلم مع الطيور والحيوانات والحشرات، ففي أحد الأيام ركب سليمان في جيشه كله

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ النمل: ١٧.

فجمعت له وأحضرت في مسيرة كبيرة، فالجن والإنس يسيرون معه، والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره، وهناك على كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة (أي نقباء) يردون أولادها على أخرها لئلا يتقدموا في المسير كما تصنع الملوك، حتى وصلوا واديا بالشام كثير النمل، قالت النملة:

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ النمل:.

بينت النملة لجماعتها أن سليمان وجنوده لا يريدون تحطيمهم عن عمد، لأنها علمت أنه نبي رحيم، وقد علمت النملة أن الآتي هو سليمان بطريق الإلهام، فسمع سليمان كلامها وفهم مرامها،

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ النمل: ١٩

سرورًا بما سمع من ثناء النملة عليه وجنوده.

أما حكايته مع الهدهد، خرج من مكة وتوجه تلقاء اليمن بجيشه الضخم، فوصل إلى صنعاء، فرآها أرضا طيبة، وبلادًا جميلة، فنزل بها هو وجيشه العظيم، وكان لسليمان فرقة من طيور الهدهد، تقوم بالاستطلاع

وتحديد أماكن الماء، تساءل سليمان عليه السلام وهو يطلب الهدهد ،فقال:

(ما لي لا أراه؟)

ثم أردف: (بل هو غائب، ذهب دون إذن مني)

فتوعده بالعقوبة على غيابه،فقال:

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ النمل: ٢١.

ولكن الهدهد لم يغب طويلا، فجاء مسرعا وحط واقفا أمام سليمان، وفي عينيه شيء مهم يريد أن يقوله لمليكه النبي الكريم، ثم راح الهدهد يحكي كل ما رآه وما عرفه، فالهدهد غائب لأنه كان في (سبأ) باليمن، فقد وجد (بلقيس) ملكة سبأ وهم يدينون لها بالطاعة. وكان الهدهد مستغربا متعجبا لأن العادة جرت أن يكون الملوك من الرجال، وكأن الهدهد لم يسمع ولم ير من قبلها! ثم راح يفصل لملكه سليمان خبرها من قوتها ومظاهر فخامتها، فهي قد امتلكت كل الأشياء التي يحتاج إليها الملوك في الدنيا من سعة المال وكثرة الرجال، ووفرة السلاح والعتاد، ثم وصف الهدهد لسليمان فخامة عرش تلك الملكة بلقيس! فهو ذلك السرير الكبير المصنوع من الذهب، وقوائمه من جوهر، وكلل بالدر والياقوت واللؤلؤ،ثم أخذ يحدثه الهدهد عما هو أعظم وأخطر،فقال:

- ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ النمل: ٢٤.

وهنا انفعل سليمان، وتملكته الغيرة على توحيد الله، وغضب من شرك دولة (سبأ) وسجودهم لغير الله تعالى.

وأراد سليمان أن يختبر الهدهد، أصادق هو في خبره ام كاذب؟ فكتب كتابًا، وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهدهد ثم أوصاه بأن يتنحى إلى مكان قريب منهم ويستتر عنهم، ثم ينظر ماذا يردون من جواب على كتاب سليمان.

فحمل الهدهد رسالة سليمان إلى بلقيس، وطار محلقا نحو سبأ، فوجد بلقيس مختليه وحدها، فرفرف فوق رأسها ثم ألقى الكتاب في حجرها، ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها.

فوجئت بلقيس بسقوط الرسالة من الأعلى في حجرها! فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها وأشراف قومها، وقادة جيشها، وأخبرتهم بأمر الكتاب العظيم.

وكان الهدهد قد طار متجهًا إلى نافذة عالية قرب إحدى شرفات القصر، وكمن فيها يسمع ويرى ما يجري في قاعة الاجتماع، لينقل ذلك كله إلى سيده سليمان.

ثم قرأت بلقيس عنوان الكتاب، وفتحت الكتاب، ثم قرأت ما فيه، ونظرت بلقيس إلى الختم الذي يزين الكتاب! ختم الملك سليمان، فأحست برهبة وحسبت للأمر كل حساب؛ فالملك سليمان يأمرها وقومها بألا يتكبروا عليه، ويأمرهم أيضًا بأن يأتوا إليه، وهو في مقر مملكته مؤمنين موحدين، طائعين".

لم يتمالك أزهر نفسه من الدهشة فقال:

- هل من شيء آخر عن النبي منذ أن كان صغيرا؟

- أجل فقد روي أن رسول الله صلى عليه وسلم قال: ((كان داود النبي

فيه غيرة شديدة، وكان إذا خرج أغلقت الأبواب؛ فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع. قال: فخرج ذات يوم وغلقت الدار، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار؛ فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل الدار والدار مغلقة؟ والله لتفتضحن بداود. فجاء داود فإذا الرجل قائم وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا يمتنع مني شيء، فقال داود: أنت والله ملك الموت فمرحبًا بأمر الله، فرمل داود مكانه؛ حيث قبضت روحه، حتى فرغ من شأنه، وطلعت عليه الشمس، فقال سليمان للطير: أظلي على داود، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهما الأرض، فقال لها سليمان: اقبضي جناحًا جناحًا.

كان فرحي بما سمعته من جدتي عن النبي يوازي فرح أشقائي أرشد وفارس، دفعني إلى سؤال:

- وكيف مات النبي سليمان عليه السلام؟

- موت عجيب!!

لن أستطيع تفسير ذلك الشعور الذي تملكني عندما سمعت الكلمات التي خرجت من فم جدتي، بينما أرشد وفارس هتفا بحماسة شديدة قائلين بصوت واحد:

- موت عجيب!.. كيف؟

ردت الجدة قائلة:

- "كان موت سليمان عليه السلام، أعجوبة من عجائب قدرة الله سبحانه، وهي آخر ما وهبه الله لسليمان من العجائب التي تخشع لها القلوب،كان سليمان ملكا مهيبا لمملكة عظيمة لم يعرف التاريخ لها مثيلا. جاء ملك

الموت إليه وهو جالس متكئ على عصاه، فقبض نفسه، وهو لا يزال على حاله تلك، لم تتغير جلسته، وكانت الجن تعمل بين يديه وينظرون إليه ويحسون أنه حي. وكان كل من يدخل عليه يراه جالسًا كما هو عادته وهو حي، وبقي سليمان على حاله وجلسته هذه، متكئا على عصاه وقورا مهيبا، ثم مر زمن غير قصير وسليمان على حاله هذه، وطيلة تلك المدة كانت دابة الأرض تأكل من عصاه التي يتكئ عليها. فقد كانت الأرضة وهي السوسة التي تأكل الخشب (تأكل منسأته) تأكل عصاه التي كان متكئا عليها. فلما خر ساقطا عن عصاه إلى الأرض انكشفت الخدعة التي كانت الجن تخدع الناس بها، فتزعم الجن للناس أنها تعلم الغيب، فقد كانت الجن مستمرين على ذلك العمل الشاق بين يدي سليمان، وهم لا يعلمون بموته، وكانوا ينتظرون أن يأذن لهم بالاستراحة فيستريحوا من العمل، ولكنهم ما علموا بموته إلا بعد أن أكلت الأرضة عصاه! وعندها علم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب، وقد كان عمر سليمان ثلاثا وخمسين سنة، وقد صار ملكا وهو ابن ثلاث عشرة سنة.

ودام ملكه أربعين سنة، وبعد موت سليمان بزمن ظهر الفساد في بني اسرائيل، وشاع الظلم والانحراف والمعاصي، وعبد بعضهم الأصنام، واتخذوها أربابًا من دون الله، فغضب الله عليهم وسلط عليهم أعداءهم عقابا لهم".

(حلم أزهر)

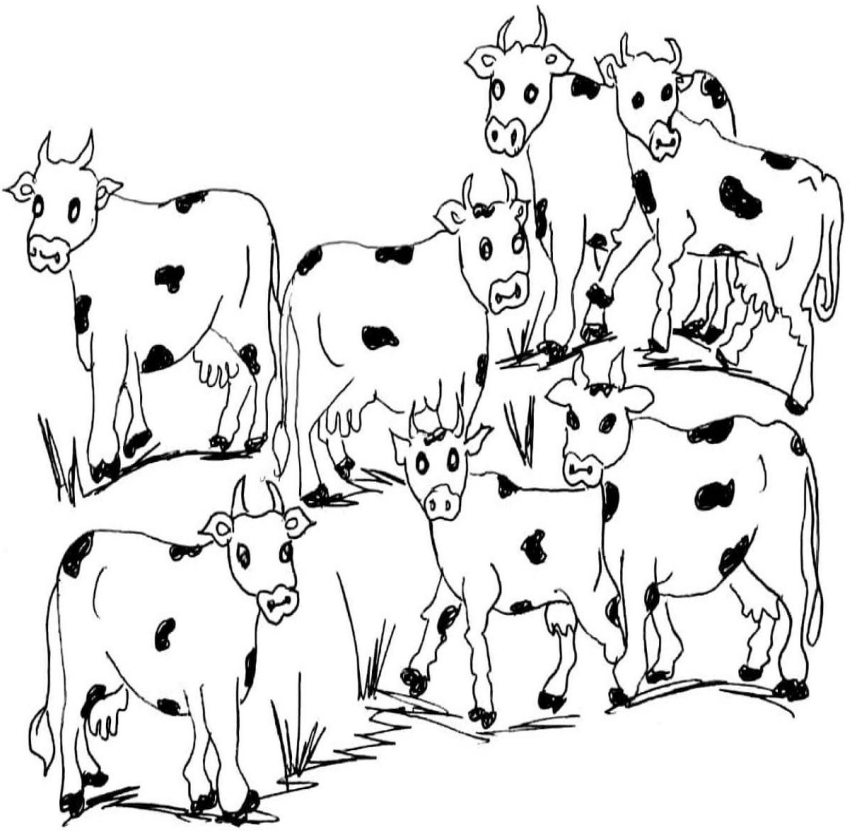

جدتي تستيقظ كل يوم من نومها مبكرة، وكثيرا ما تنشغل بقراءة كتاب، فهي كانت مفتونة بقراءة سير العظماء والأنبياء والصالحين.

ما أكثر ما يستقبل الناس الصباح كل على طريقته الخاصة بعمل ما، وما أكثر ما يستقبلون المساء بعمل آخر، لكن ما حدث لأخي أزهر في هذا الصباح شيء ملفت للنظر! جعلني أن تعجب كثيرا من تصرفاته، وذلك لأنه منذ أن استيقظ جلس صامتا حائرا كأنه يفكر بشيء ما! فهو ليس كعادته في كل صباح كان يثرثر بيننا هنا وهناك،عكسي تماما، فأنا استيقظت صباحا مملوءة بالنشاط، حالة الاستغراب هذه امتدت إلى أخي فارس الذي كان يجلس على مقربة مني يطالعُ في كتبه المدرسية، وجدتي ما زالت منهمكة في قراءة الكتاب الذي بيدها. فقلت لأزهر:

- ما الذي أيقظك مبكرا هذا الصباح ؟.. ما بك، صامتًا على غير عادتك؟

جدتي على ما يبدو كانت تسترق السمع للكلام الذي دار بيني وبين أرشد، فوضعت الكتاب الذي كان بيدها جانبا، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة عريضة وهي تحدق بأرشد من وراء نظارتها الطبية وقالت له:

- ماذا يحزنك يا ولدي أزهر؟ هيا قل لنا؟

رد بصوت خفيض:

- آه.. يا له من كابوس فظيع!!!.

قلنا:

- كيف؟

قال:

- في الليلة الماضية، قمت من نومي مذعورا، تقلبت على سرير نومي حتى الصباح، لم أذق طعما للراحة ولا لذة للنوم!

أردفت قائلة:

- ما السبب؟

أجابني وقد تلبسه الحرج قليلا:

- حلمت حلما، لا أدري إن كان طالع خير أم شرا لي!

هدأته جدتي حينما قالت له:

- مهما يكن ما راودك في نومك، لكن عليك أن تعرف الفرق بين الحلم والرؤيا!

أزهر كان مستسلما للصمت ويصغي بكل دقة لما قالته له جدتي، فسألها قائلا:

- وكيف لي أن أميز ما رأيته في نومي إن كان حلما أم رؤيا؟

ردت الجدة قائلة:

- سؤال جيد يا أزهر، الحلم هو يكون من صنع الشيطان! أما الرؤيا الصالحة هي نوع من أنواع الوحي الذي يوحيه الله إلى من يشاء من عباده الصالحين، فربما تكون هذه الرؤيا هي إنذار أو رسالة تحذير للرائي لعمل ما!

تهلل وجه أزهر فرحًا وقال:

- شكرا لك يا جدتي، بفضلك عرفت الفرق بين الحلم والرؤيا.

لم تمضِ سوى لحظات قليلة حتى قلت لجدتي:

- أنرتِ قلوبنا يا جدتي، زادك الله نورا، في كل يوم نتعرف على أشياء جديدة مهمة، وحكايات لم نسمعها من قبل.

كلامي هذا جعل أزهر يسأل جدتي قائلا:

- مؤكد أنك تعرفين بعضا من الرؤيا للأنبياء والرسل؟

هزت جدتي رأسها بالإيجاب وقالت:

- "نعم، هناك الكثير، منها رؤيا فرعون ملك مصر عندما كان نبينا يوسف في السجن.

فارس فجأة قال:

- أنا متشوق لسماع هذه الحكاية يا جدتي.

ردت عليه جدتي قائلة:

- "أنتم قليلو الصبر يا أحفادي، حسنا سأحكيها لكم.. استيقظ ملك مصر ذلك الصباح منزعجا خائفا فأسرع في الخروج مبكرا إلى مجلس الملك، ثم جمع الكهنة والعرافين وقص عليهم رؤياه وطلب منهم أن يفسروها ويعبروها وقصها لهم قائلا:

- {إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات }.

لكنهم اعتذروا للملك، معلنين رأيهم في رؤياه، وعجزهم عن تأويلها.

لكن شخصا واحد استأذن الملك في الكلام، إنه (بيوص) الساقي، فقد تذكر صاحبه القديم في السجن، يوسف!

ثم أخبر الملك بأنه يعرف في السجن رجلا صادق التعبير للرؤيا، وقص (بيوص) على الملك قصته في السجن مع يوسف، ورجا الملك أن يبعثه لإحضار يوسف، كي يفسر للملك رؤياه العجيبة التي عجز الجميع عن تفسيرها، فأذن له الملك، وسرع (بيوص) إلى السجن، فوجد يوسف كما عهده قبل سبع سنين، صار محتسبا، وحياه معتذرًا عن نسيانه ما أوصاه به، ثم قص عليه رؤيا الملك، فعبر للساقي رؤيا الملك وفسرها له، فأفهمه أن البقرات السبع السمان ترمز لسبع سنوات من الخصب والخير الوفير، وأرشدهم إلى ما يفعلونه في سنوات الخصب بأن يدخروا الحبوب في سنبله إلا ما يرصد للأكل، أما البقرات السبع العجاف الهزيلة، فهي سنوات قحط ستمر عليهم بعد سنوات الخصب، وكذلك أرشدهم إلى تقليل البذر في سنوات الجدب إذ الغالب على الظن ألا يرد البذر إلى الحقل، ثم بشرهم يوسف بعد سنوات الجفاف والقحط والمجاعة، فقال لهم عن شيء لم يرد في حلم الملك رمز له، حيث سيكون العام الخامس عشر عاما يكثر فيه المطر، فينمو الزرع والثمار بأنواع شتى من عنب وزيتون وقصب وسمسم، وهذا الخبر السعيد عن عام المطر والخصب هو معجزة من نبوة يوسف.

ذهل الساقي وأسرع فرحا إلى الملك، فأذهله وملأه بعدما قص عليه تفسير يوسف لرؤياه، فاقتنع الملك وارتاح، حين أدرك بعد تفسير رؤياه أنها رؤيا عظيمة وخطيرة، فأمر بإحضار يوسف، فعاد الساقي إلى يوسف فرحا مسرعا إلى يوسف يحمل إليه بشرى خلاصه من السجن بأمر الملك!".

تعلقت العيون بالجدة أكثر!! مما أثار في نفوسنا السؤال الآتي:

- وماذا حدث؟ هل خرج نبي الله يوسف بعدما جاءه الساقي يحمل أمر خروجه من السجن؟

قالت:

- "ولما وصل إلى يوسف وأخبره بأمر الملك، بقي يوسف هادئا وقورا كما هو شأنه أبدا، وأذهل الساقي عندما أعلن رفضه الخروج من السجن إلا بعد أن يتبين للجميع بأنه سجن ظلما وعُدوانًا ،وطلب يوسف من الساقي أن يرجع إلى الملك:

- ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ يوسف: ٥٠ .

ولم يذكر يوسف اسم راعيل التي كانت هي السبب الأول في إلقائه في السجن، وفاءا منه للعزيز الذي آواه وأكرمه، وحفاظا على سمعته، فاستدعى الملك جميع أولئك النسوة ومعهن راعيل زوج العزيز، وحضرن جميعهن إلى الملك، والنسوة أجبن الملك جوابا صريحا صادقا، حيث شهدن ببراءة يوسف وعفته، وهنا لم تعترف راعيل بالحقيقة كلها، وحكت عن نفسها هي ولم تذكر شيئا عن مراودة النسوة ليوسف، ولم ترتح راعيل بالاعتراف الكامل وحده، بل طلبت المغفرة من الملك، لأنها ترى نفسها مذنبة تستحق العقاب إلا إذا رحمها الملك وغفر لها وعفا عنها.

أعجب الملك كل الإعجاب بيوسف، وكبر في عينيه وعقله وقلبه، فأيقن أنه إنسان نادر المثال في عفته برغم المرواده الشديدة، وفي صبره على السجن الطويل، فقرر أن يختاره من بين الناس ليكون مستشاره والعقل المفكر إلى جواره! فأصدر الملك أمره بإحضار يوسف إليه في الحال".

أطال الله عمرك يا جدتي الحنون، ورؤيا أخرى؟

- رؤيا السجنين اللذين كانا مع يوسف عليه السلام في السجن!

بإلحاح قلنا وبصوت واحد:

- هيا أسمعينا تلك الرؤيا؟

- "ذات يوم أقبل السجينان على يوسف بلهفة وشوق وقلق، وكان يعلو وجه أحدهما سرور ظاهر، فيما اصطبغ وجه الآخر بكآبة وحزن ظاهر، وما كانا يستطيعان أن يكتما ما هما فيه، وكان كل منهما قد رأى رؤيا في ليلة واحدة، فأبهجت أحدهما رؤياه، وأحزنت الثاني رؤياه، ولم يعرفا لها تفسيرا ولا تأويلا.

روى كل منهما رؤياه ليوسف، فقال أحدهما وهو فرح سعيد، وكان هذا الفتى السجين قد رأى في منامه كأنه في بستان فيه شجرة عنب، تتدلى منها ثلاثة عناقيد،فقطفها، وأخذ يعصرها في كأس الملك، ثم سقاه.

أما السجين الثاني فقال ليوسف أنه رأى نفسه في الحلم كأنه يحمل فوق رأسه ثلاث سلال فيها خبز، وسرب من ضواري الطيور تأكل من ذلك الخبز.

وطلبا من يوسف أن يفسر لهما رؤياهما، وما تؤولان إليه.

ثم بدأ يفسر لهما رؤيا كل منهما وقال لهما:

- ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾ يوسف: ٤١

ولم يعين من صاحب البشرى، ومن هو صاحب المصير السيء، وذلك تلطفا من المواجهة بالشر والسوء ولكنه أكد لهما الأمر واثقا من العلم الذي وهبه الله إياه.

ثم أقبل يوسف على الساقي وهو الذي (ظن أنه ناج منهما) فطلب منه بعد إطلاق سراحه أن يخبر الملك بخبر يوسف وبراءته وكونه مسجونا بظلم.

وصدق تأويل يوسف لرؤيا السجينين، فبعد ثلاثة أيام بعدد العناقيد الثلاثة والسلال الثلاث، أخرج السجينان من السجن، فأطلق سراح الساقي (بيوص) ورجع إلى ربه الملك يعمل ساقيا له في قصره، أما الخباز (الطباخ) فأقتيد إلى خشبة الصلب حيث صُلب، لكن الساقي وفي فرحه الغامر بنجاته نسي ذكر يوسف عند الملك".

وبعد أن انتهت جدتي من قص رؤيا السجينين قلت:

- فقط هذا كل ما تتذكرينه عن رؤيا الأنبياء والرسل؟

صمتت جدتي للحظات وكأنها تذكرت للتو رؤية أخرى فقالت:

- بل هناك رؤية الملك فرعون قبل ولادة النبي موسى ورؤيا (يوكابد) أمه.

هتف أزهر هنا دون إرادة وقال:

- أفهم من كلامك بأن هناك رؤى أُخرى؟

إن رؤية أزهر وقد عاد إلى طبيعته، بعثت فيها وفيّ البهجة والسرور فردت عليه:

- "نعم. كانت رؤيا فرعون.. النار الهائلة أقبلت مثل طوفان اللهب، أقبلت من جهة بيت المقدس، ثم دخلت مصر بسرعة البرق، وشبت في بيوت مصر، فأحرقت أول ما أحرقت بيوت الأقباط المصريين، فلم ينج منها بيت واحد وأحرقت جميع القبط، لكن النار ياللعجب! لم تمس بيوت بني اسرائيل، ولو بشرارة واحدة، فبقيت بيوتهم كلها سليمة على حالها، لكن هذه النار ما دخلت أرض مصر، ولا أحرقت بيوت الأقباط، ولا تركت بيوت بني اسرائيل، وما وجدت على الأرض قط، إنما هي نار كانت تلتهب وتتلظى في رؤيا مفزعة رآها فرعون الطاغية في منامه.

وفزع فرعون فزعا فاستفاق مذعورا هلعا! ثم تمالك نفسه ما استطاع ومضى إلى مقر حكمه، فجلس على عرشه وحوله كبراء قومه ووزرائه وعلى رأسهم وزيره الأول هامان، فأحضروا له المنجمين والكهنة على الفور، وعندما جاؤوا قص لهم حلمه - رؤياه - الرهيب المرعب، وطلب منهم أن يعبروه له ويفسروه، فقال الكاهن الأكبر وهو يفسر الرؤيا لفرعون:

- (يولد في مصر مولود من بني اسرائيل، يذهب ملكك على يديه ويكون هلاكك بسببه!).

جن جنونه فرعون وثارت ثائرته وتمادى في طغيانه! وفي الحال أمر أن يذبح كل مولود ذكر في بني اسرائيل!

أما رؤيا (يوكابد) أم موسى فكانت أن أوحى الله إلى أم موسى وأمرها أمرين اثنين من أوامر الله لها: "أن ترضعه وأن تلقيه في نهر النيل!".

وكذلك أدركت يوكابد أن الله سبحانه نهاها عن شيئين اثنين:

نهاها عن الخوف على موسى من الهلاك، ونهاها عن الحزن لغرقه.

وأدركت يوكابد أيضا أن الله سبحانه وعدها ببشريين اثنتين:

بشرها بأن يرد إليها موسى سالما، وبشرها بانه سوف يجعله رسولا.

وامتثلت يوكابد أم موسى لأمر هذه الرؤيا، فأحضرت تابوتا (صندوقا) مصنوعا من ورق البردي، وطلته بالقار، ثم لفت رضيعها موسى بقطعة قماش ووضعته في التابوت، كما تضع الأم طفلها في مهده، ثم أغلقت التابوت على موسى، وفي سكون الليل وتحت ستار ظلامه، خرجت يوكابد ومعها ابنتها مريم تحملان التابوت، وقلبها يخفق بالأمل والقلق، ثم ألقت التابوت في نهر النيل، وجرى الماء هادئا بالتابوت، ومضى بعيدًا في تلك الساعات المتبقية من الليل، تحت عين الله ورعايته.

ومع إشراقة الصباح كان التابوت قد رسى على شاطئ النيل، حيث يطل عليه قصر فرعون".

قال أزهر بلهفة واضحة:

- وكيف تمت ولادة موسى وعيون فرعون الظالم في كل مكان؟

قالت جدتي:

- "لما قرب وقت وضع يوكابد، لازمتها قابلة من جواسيس فرعون، وذلك لكي تأخذ المولود منها إذا كان ذكرًا، لتقدمه إلى الذباحين ليذبحوه كما أمر الطاغية فرعون بذلك.

حلت الساعة السعيدة فجاء يوكابد المخاض فأقبلت عليها القابلة (المولدة) الجاسوسة، فقامت بتوليدها بنفسها، ثم وضعت يوكابد حملها، فكان طفلا ذكرا جميلا مشرق الطلعة، وفيه سِرٌ ما عرف أحد منهم مصدره، فقد كان هذا الطفل محببًا إلى كل من يراه من أول ساعة ولادته؛ فكل من رآه أحبه واستلطفه ومالت إليه نفسه.

وكان أول من أحب الرضيع الجديد هي القابلة نفسها وعقلها أمر فرعون الفظيع.

وسمت يوكابد رضيعها المحبوب (موسى)، وهكذا بدلا من أن تذهب القابلة لتخبر اتباع فرعون، وجدت حبها لموسى يغلبها على أمرها! فراحت توصي أمه بالحفاظ عليه وإخفائه عن العيون والجواسيس، وبقيت أم موسى ترضعه ثلاثة أشهر".

تمتم فارس وسأل جدتي:

- لكنني لم أعرف ماذا حدث عندما رسى التابوت على شاطئ قصر الملك فرعون؟

ربتت جدتي على كتف فارس وقالت:

- "نعم، اسمع يا فارس.. نزلت جواري آسيه امرأة فرعون، فوجئن بالتابوت جانحا إلى الساحل، فحملنه إلى سيدتهن آسية زوجة فرعون، فلما فتحت آسية غطاء الصندوق تملكها العجب والدهش، فقد وقع نظرها على الطفل، فرأت بين عينيه نورا قذف محبته في قلبها، هذه المحبة الآسرة التي ألقاها الله سبحانه وتعالى على موسى، وحين سمع الذباحون بأمر الرضيع أقبلوا من فورهم يهرعون وأحاطوا بالطفل ليأخذوه من آسية

كي يذبحوه، لكن آسية رفضت ذلك ولم تعطهم الطفل؛ فأسرع الذباحون بالخبر إلى فرعون، ولم يكد يصدق فرعون ما سمع، إذ لم يترك الذباحون طفلا إلا وقتلوه! فمن أين جاء هذا الطفل، فذهب فرعون في الحال مسرعا إلى غرفة امرأته، وحوله الذباحون وأيدهم وأيديهم على قبضات سكاكينهم وسيوفهم، وأمام هذا المشهد المخيف لم تجد آسية أمامها إلا أن تقول لفرعون:

- إنه فرحة ومسرة لي ولك، لعلنا نسر به فيكون قرة عين لنا.

قالت آسية ذلك وهي تتوسل زوجها فرعون وتلح عليه فلبى طلبها على مضض! ولكنه قال لها ردا على قولها:

- (أما لك فنعم، وأما لي فليس بقرة عين!)

ولو قال قرة عين لي هذا لهداه الله به ولآمن ولكنه أبى.

قالت آسية هذا من كل قلبها لأنها لم تكن تلد، وهي تأمل أن ينفعهما في الكبر.

وبهذا التدبير الإلهي المحكم نجى موسى من فرعون.

فحين سمعت يوكابد بأن طفلها قد وقع في يد فرعون، طار عقلها من الجزع والغم، فأوشكت أن تكشف أمره وتظهر لهم أنه ابنها من شدة حزنها، حتى كادت تصيح: "وا ابناه"! لكن الله ثبت قلبها وألهمها الصبر على فراقه، ثم التفتت إلى ابنتها مريم فأمرتها بأن تذهب وتتبع أثره حتى تعلم خبره وتنظر ماذا يفعلون به.

مضت مريم إلى حيث أمرتها أمها، لقد رأت مريم أخاها موسى عن بُعد، وجعلت تنظر إليه كأنها لا تريده.

جاع الطفل وأخذ يبكي، فبعثت آسية من أحضر المرضعات للطفل، لكنه كلما جاءت مرضعة لترضعه أبى أن يقبل ثديها؛ فيأتون بمرضعة أخرى فلا يرضع منها شيئًا!!".

واشتد الدهش والحيرة في قلوبنا ووجوهنا، فقلت:

- وهل بقي الطفل جائعا كثيرا؟

قالت جدتي بكل زهو:

- "وبينما كانت أخته مريم قد تسللت إلى القصر مع المراضع، فلما رأت بكاءه الشديد ورفضه الرضاعة من أية مرضعة، قالت لهم: "هل أدلكم على مرضعة له تكفله وترعاه".

وكان الرضيع بيد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكي يريد الرضاع، فسألها مستغربا: (وما يدريك بنصحهم وشفقهم عليه).

فقالت مريم أخت نبي الله موسى: (رغبة في سرور الملك ورجاء منفعته).

وكان هامان وزير السوء حاضرا فقال بخبث ومكر: (إن هذه الفتاة تعرف الطفل وتعرف أهله فخذوها حتى تخبر عنهم).

ويا للمفاجأة المذهلة! كادت تنكشف حقيقة الطفل وأهله في لحظة واحدة! لكن الفتاة سارعت إلى القول:

- (أردت من قولي هذا أنهم للملك ناصحون وليس للطفل).

فأمرها فرعون بأن تأتي لهم بمن ترضع الطفل وتكفله، فأطلقوا مريم، فخرجت مسرعة، وأتت بأمها لترضع أخاها، ولما دخلت الأم إلى القصر وجدت طفلها على ذراع فرعون وعجب مما رأى، فسألها بشك

وارتياب لعلها أن تكون أمه أو قريبة له:

- (من أنت منه؟ فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟!)".

شعرت كأن قلبي يقفز من مكانة وقلت دون صبر:

- هل عرفوا بأنها أخته؟ وماذا فعلت في حينها؟ احكي على الفور يا جدتي؟

وكرر نفس الكلام من بعدي أزهر وفارس.

أجابت على تساؤلاتنا وهي تبتسم:

- "قالت لهم:(إني امرأة طيبة الرائحة، طيبة اللبن، لا أكاد أوتى بصبي إلا أقبل على ثديي هانئا مطمئنا)، فدفع فرعون الطفل إلى أمه وأجرى لها راتبًا.

أما آسية التي ملك حب الطفل قلبها وملأه، فكانت أشد الحاضرين فرحا وسرورا، وعرضت على أم موسى أن تقيم عندها، وأن تحسن إليها، فأبت عليها وقالت:

- (إن لي زوجا وأولادا، ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معي).

فأرسلته معها، ومنحتها الثياب والهبات والهدايا، ورجعت يوكابد إلى بيتها تحمل صبيها وتضمه إلى صدرها سعيدة جذلة راضية شاكرة نعمة الله عليها، وقد تحققت لها أولى البشريين اللتين رأتهما في رؤياها، وقد علمت أن وعد الله حق.

(خادمة الرب)

وفي اليوم الثاني والأيام الثلاثة التي تلته حلَّ يوم الخميس، وكل ذهب إلى سريره لينام، جلست على سرير نومي لا رغبة لي بالنوم، نهضت ونظرت من شباك الغرفة إلى السماء فوجدتها مرصعة بالنجوم! فقد شغلت رأسي أفكار كثيرة صغيرة وكبيرة عن معنى اسمي (خادمة المعبد!) لا أعرف الإجابة عليها إلا من جدتي، فتسللت بخطوات بطيئة حتى لا يحس بها أحد من إخوتي سواء كان أزهر أو فارس، إلى أن وصلت باب غرفة نوم جدتي فدخلتها على الفور ومن ثم أغلقت الباب، فوجدتها منهمكة بقراءة كتاب، حييتها وجلست بقربها، وما هي إلا لحظات وإذا بأخي الصغير فارس قد تسلل هو الآخر من بعدي كأنه قط يسير على أطراف أصابعه وجاء من بعده أزهر الذي لم يعد مشاكسا كما كان فيما مضى من الأيام، بل صار أكثر هدوءًا بعد أن سار ممتثلا لوصايا جدتي التي كانت في أسلوب التخاطب واحترام الطرف الآخر، لكنه هذه المرة كان مصمما على أن يثير غضبي، فعاد وقال لي:

- ماذا تفعلين في غرفة جدتنا؟

تنهدت قليلا وقلت: في الإجابة أول مرة ثم أجبتهم بحماس:

- جئت لرؤية جدتي قبل أن تنام وأقول لها: تصبحين على الخير والعافية!

قال لي ساخرا:

- فقط؟.. أم هناك غايةٌ في نفس مريومة؟

تلعثمت في الإجابة، وشعرت بصعوبة الوصول إلى جواب على سؤاله، لكنني سألته سؤالا أربكه:

- وأنتم ما جاء بكما؟

جدتي أسكتتنا حينما قالت:

- اجلسوا يا أحفادي الغوالي بقربي، فليس أحب إلى قلبي من ذلك، ففرحي لا يكتمل إلا بوجودكم بقربي، ثم سألتني:

- لا بد أن هناك شيئا تودين قوله يا مريم، أليس كذلك؟

أجبتها بشيء من التردد:

- أجل، عندما عرفت معنى اسم مريم (العابدة خادمة الرب)، لم تحكِ لنا حكاية سيدتنا مريم العذراء؟

أزهر لم يستطع أن يصدق ما يسمع، فقال صارخا:

- نعم.. نعم يا جدتي.. احكي لنا.

فارس هو الآخر تشجع وطلب منها الشيء نفسه.

اشتد الدهش والحيرة في وجه جدتي وهي تهمس لنا:

- إش.ششششش؟

هدأت الصيحات وحل الصمت، وأردفت قائلة:

- ذات نهار جلست السيدة (حنة بنت فاقوذ) زوج عمران، تحت شجرة وارفة الظلال، وراحت تفكر في خلق السموات والأرض، وفي قدرة الله المطلقة، جلست تحت ذلك الظل الظليل وقد علاها الشيب، وبينما هي في تفكرها إذ لفت انتباهها طائر على الشجرة يزق فرخه الصغير في عشه ويغذيه بحنان بالغ، فثار الحنين في قلب حنة إلى الولد، وتمنت لو تُرزق

بولد فترعاه وتطعمه كما يرعى هذا الطائر فرخه ويطعمه، فدعت حنة ربها الله في نفسها دعاء خفيًّا وقالت حيث لا يسمعها إلا الله: (اللهم إن لك نذرا إن رزقتني ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس، فيكون من سدنته)، فتقبل الله دعاءها الخفي، وحقق أملها المكبوت بعد اليأس وفوات الشباب، وبعد أشهر أحست بالحمل، فكانت فرحتهما هي وزوجها لا تكاد توصف، فرحا بهذا الكرم الإلهي، ولكن ما إن مضت على حمل حنّة عدة أشهر حتى مات زوجها عمران، فقدر لهذا الجنين أن يولد يتيمًا، وقد رجت حنة أن يكون هذا الحمل ذكرا ليقوم مقام أبيه الراحل في سدانة بيت المقدس، فلما ولدت خاطبت ربها معتذرة متحسرة:

- ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ آل عمران: ٣٦.

وإنما قالت حنة هذا لأنه لم يكن يقبل في النذر إلا الذكور، فقبل الله مريم، وقالت حنة لربها بالاسم الذي اختارته لبنتها:

- ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ آل عمران: ٣٦ .

ومعنى مريم في لغة قومها {العابدة خادمة الرب}.

ثم برت حنة بنذرها، فوهبت ابنتها مريم لبيت المقدس.

لفت حنة ابنتها مريم في خرقة، وحملتها إلى المسجد، حيث سلمت للأحبار من أبناء هارون، وهم سدنة بيت المقدس (أي خدامه).

سعد أزهر بما سمعه من جدتي وأعرب عن سعادته قائلا:

- وماذا فعلت مريم في بيت المقدس؟

واصلت جدتي كلامها:

- "اختارها الله من بين سائر النساء فخصّها بالكرامات، وطهرها من الأدناس والأرجاس والأقذار، وكانت الملائكة تحثها على الاجتهاد في العبادة والقنوت لله سبحانه، فتقول لها:

- ﴿ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ آل عمران: ٤٢ - ٤٣.

منذ أن أخذت جدتي تحكي لنا عن حكاية سيدتنا مريم العذراء، وسؤال يدور في رأسي!.. لم أستطع أن أمنع نفسي من التساؤل، انتظرت حتى حانت الفرصة المواتية لأسألها، فقلت:

- مريم كانت عذراء، أي لم تتزوج فكيف ولدت سيدنا عيسى عليه السلام؟

ردت جدتي بهدوء:

- "في أحد الأيام تنحت مريم واعتزلت، وصعدت إلى ربوة في مكان مرتفع شرقي بيت المقدس، حيث تتفرغ لعبادة الله وتتفكر في خلق السموات والأرض، وجعلت مريم بينها وبين قومها سترا وحاجزا وذلك لتتفرغ بكل أفكارها خاشعة لله سبحانه، وبينما هي في عبادتها إذ لمحت شابا وسيما أبيض الوجه جعد الشعر، يتسلق تلك الربوة ويتخذ طريقه متجها إليها، فذهلت مريم لهذه المفاجأة، وأوجست من هذا الشاب خيفة، ففزعت وخشيت أن يكون أرادها بسوء، فقالت له:

- ﴿ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴾ مريم: ١٨.

ولكن ما كان هذا الشاب الوسيم إلا جبريل عليه السلام، وقد أرسله الله إلى مريم، فأقبل على مريم هادئا وقورا، وقال يطمئنها، ويذهب عنها خوفها، وأكد لها أنه ليس ببشر بل ملك بعثه الله إليها:

- ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ مريم:١٩.

فأنكرت مريم ما سمعت وازدادت فزعا، فكيف يأتيها ولد وهي ليست ذات زوج، وليست بزانية، فقالت:

- ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ مريم: ٢٠.

ما أشد محنة مريم وما أعظمها وهي في وحدتها على هذه الربوة الشرقية وليس معها إلا هذا الشاب الوسيم الغريب، ولكن سرعان ما استطاع جبريل أن يطمئنها، فتأكدت أنه هو جبريل، جاءها في هيئة شاب وسيم، واطمأنت إليه كل الاطمئنان عندما أخبرها أن الأمر لله سبحانه، وهو الذي قضى بمجيء الغلام الزكي منها وإن لم تكن ذات زوج، ومن هذه الساعة أدركت مريم أنها مقبلة على أيام عصيبة، وذلك مما ستلقاه من قومها من إنكار أي إنكار.. ولن تعود أيام مريم كما كانت من قبل، بعد أن بشرها جبريل بالغلام الزكي، وأخبرها أن ابنها اسمه عيسى:

- ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ آل عمران: ٤٥ - ٤٦ .

وأخبرها جبريل أيضا:

- ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾ آل عمران: ٤٨.

لقد بشرت مريم بأن ابنها سيكون رحمة من الله لعباده، ولا تزال مريم وحدها خلف حجابها، وعلى تلك الربوة الشرقية وإذا بها ترى جبريل يدنو منها، فتناول ردن قميصها بإصبعه، فنفخ فيه، وقيل إن جبريل نفخ في جيب درعه (قميصها) فدخلت النفخة في جوفها، فحملت مريم من فورها وساعتها، ولم تدم مدة حملها أكثر من ساعة واحدة كما شاء الله ذلك، فأحست مريم بالجنين الكريم يتحرك في بطنها، فإن فرح مريم بحملها كان مشوبا بالقلق والخوف من قومها، فمكثت في مكانها تقلب أفكارها وتغالب حيرتها وما ستلاقيه من قومها، وبينما هي كذلك إذ أقبل عليها ابن عمها وخطيبها يوسف النجار، وكان قد ذهب إلى المسجد فلم يجدها، فجاء إليها هنا حيث توقع أن يلقاها، ولكن مريم ما إن رأت ابن عمها حتى عاودتها هواجسها وداهمتها مخاوفها، ولم تعرف ماذا تقول لخطيبها فارتبكت وتلعثمت، لكن يوسف النجار سبقها بالكلام فقال لها:

- لا تجهدي نفسك يا مريم، ولا تراعي، فأنا أعلم ما تريدين قوله!

فذهلت مريم ذهولا!

فمن أعلم يوسف بأمرها وهي هنا لم تبرح مكانها، وقبل أن تسأله استبقها هو فقال:

- أنا أعلم أنك حامل!

فهتت مريم ولم تكد تعرف ما تقول ليوسف، لكنها تمالكت نفسها ويكاد الحياء يعقد لسانها فسألته:

- ومن الذي أعلمك بهذا؟

فأجاب يوسف النجار:

- أعلمني الذي كان عندك قبل قليل!

حمدت مريم الله ربها، إذ هيأ لها من يصدقها، وهو من أقرب الناس إليها، واطمأنت نفسها إذ برأها الله أمام خطيبها.

وها هي مريم توشك أن تضع حملها، حملت مريم ولدها الكريم، فضاقت نفسها ذرعا، وذلك لخوفها من أن تنطلق ألسنة الناس بما يسبب لها فضيحة في قومها، فما كان منها إلا أن تعتزل بحملها، فاختارت مكانًا بعيدًا عن أهلها وذلك خشية أن يعيروها بالولادة من غير زوج.

وها هي مريم توشك أن تضع حملها فقد بدت عليها آلام المخاض والولادة، ولكن ابن عمها يوسف كان معها، يقوي عزيمتها ويشد من أزرها، وكان يأمل أن يصل بها إلى قرية قريبة، لتضع هناك طفلها، إلا أن ألم المخاض ووجع الطلق كان أسبق منهما، حيث اضطرها الطلق إلى أن تلتجئ إلى جذع نخلة يابس في بيت لحم، فجلست مريم هناك وقد أسندت ظهرها إلى جذع النخلة، أما يوسف فلم يجد أمامه ما يفعله سوى أن يسرع إلى القرية، ليجلب لها شيئا يساعدها على الولادة، وتركها وحيدة في هذا المكان القفر، عند جذع النخلة اليابس، وعادوتها آلام المخاض والطلق، حتى أن إحدى دفعات الطلق القوية الشديدة القاسية جعلت مريم تتمنى لو لم تخلق ولم تكن شيئا..

وراحت تصيح بكل قوتها الواهنة:

- ﴿ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ ﴾ مريم: ٢٣.

ونحن نصغي لحديث جدتي المشوق الذي بدد ما يحيط بنا من هدوء وسكينة، ووجدت نفسي أسألها:

- الله ﷻ قد سهل عليها ما تعاني من آلام الولادة؟

قالت:

- ونزل الوليد المعجزة المبارك، ومعه ومن أجله أيضا، نزلت معجزة أخرى عظيمة، فها هو جذع النخلة اليابس تدب فيه الحياة بإذن الله، وفي اللحظة نفسها ضرب جبريل برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب، فجرى جدولا، وفي اللحظة نفسها أيضا سمعت مريم النداء الحبيب، الصوت الذي أنساها كل آلامها وحزنها وخوفها، سمعت وليدها:

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي ﴾ مريم: ٢٤ .

ما أعظم هذه المعجزة، فها هو عيسى يكلمها ويطمئنها ويهنئها وهي وحدها تحيطها المعجزات من كل مكان،ثم بشرها بأن(سريا) جدولا صغيرا أعد لها فقال:

- ﴿ قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ مريم: ٢٤ .

ونظرت مريم فرأت جدولا رقراقا صغيرا يفيض بالماء العذب، ولا يزال وليدها يعدد لها البشرى، فقال لها:

- ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾ مريم: ٢٥ - ٢٦.

وهزت مريم جذع النخلة ونظرت فرأت معجزة أخرى تحدث أمام عينيها لحظة بلحظة، فها هو السعف قد طلع، وذاك هو الطَّلْعُ قد خرج من بين السعف، ثم اخضر الطلع فصار بلحا، ثم احمر فصار زهوا، ثم رطبا، ثم راح الرطب الشهي يتساقط فيقع بين يديها، ومع كل هذه الخيرات المباركة التي أنزلها الله لمريم، وهيأها لها، فأكلت وشربت وقرت عينا، فطابت نفسها بمولودها المبارك ولم تحزن.

مع هذه البركات فإن هناك خوفا من قومها اليهود المولعين بهتك الأعراض، فماذا تصنع لو رأوها؟ لكن ذلك المولود لم يدع لهذا الخوف أن يمس قلبها فطمأنها قائلًا :

- ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾.

اطمأنت مريم لما رأت ولما سمعت، ثم لفت طفلها الحبيب في قميص لها، وجلست ترضعه، وتتأمله راضية مستبشرة، وحين رفعت عينها أبصرت من بعيد خطيبها يوسف النجار آتيا نحوها يسعى، وقد حمل معه لها غذاء وماء وشيئا من متاع، مما تحتاج إليه النفساء، ولما بلغ مكانها وجدها تحمل

رضيعها، والبشر يشرق في وجهها، ثم رأى وأعجب بما رأى، رأى النخلة المثمرة يانعة الرطب، ورأى الجدول يجري رقراقا أمام مريم، فأدرك أنها معجزة من الله، لكن مريم أخبرته بما أعجب وأسى!".

بينما نصغي إليها بعناية فائقة، قفز فارس من مكانه مدهوشا وقال:

- وما هو؟!

أجابته:

- "وذلك حين قالت له:(لقد كلمني ولدي عيسى).

فقال يوسف:

- أعلم أن الله على كل شيء قدير.

كانت مريم قد خرجت من عند أهلها حين أشرقت الشمس، وعند الظهيرة رجعت مريم باتجاه القرية، يتقدمها ابن عمها يوسف النجار، رجعت ومعها وليدها الحبيب عيسى، إذ لم يستغرق حمله وولادته أكثر من ساعات قليلة، وحين نظر قومها رأوا مشهدا لا يصدق، فتنادى الناس بالخبر المذهل العجب، فهاج اليهود وماجوا وأقبلوا على مريم غاضبين مستنكرين، فقالوا لها إن ولدك هذا ثمرة زنا، وهو فعلة منكرة عظيمة، ولم يتطالوا عليها بالقول وحده، حتى قبل إن يسمعوا منها جوابا، فمدت امرأة منهم يدها لتضرب مريم على وجهها، فشلَّ الله يد تلك المرأة، ثم فجأة اندفع رجل منهم يصيح في وجه مريم:

- ما أنتِ إلا زانية!

فأخرس الله لسانه في الحال، وهنا وجم الجميع وترددوا فخافوا وتراجعوا إلى الوراء، لكنهم عادوا وتقدموا منها بأدب وخاطبوها برفق،

وقالوا لها بأن أباها عمران رجل من الصالحين، وقدوة صالحة في الفتوى، لكن مريم ظلت على صومها الذي نذرته للرحمن، فلم تلفظ كلمة واحدة برغم كل ما سمعت، فقامت ووضعت الطفل بينهم وهي صامتة (فأشارت إليه) ليكلموه هو!".

اشتد الدهش والاستغراب أكثر وأكثر، حينما صرخنا:

- ماذا؟ طفل يتكلم؟

قالت الجدة بزهو:

- "نعم، وذلك بعد أن ضاق بها الحال، لكن قومها ازدادوا غضبًا وظنوا أن مريم تتحداهم، وتسخر منهم، فردوا عليها متعجبين مستنكرين وازدادوا صخبا وشغبا وضجيجا، وبينما هم كذلك إذ أقبل زكريا عليه السلام نحوهم يسعى، وكان قد بلغه خبر الحادث العجيب، فجاء مسرعا، وتقدم نحو الصبي في المهد عيسى، وهو وسط القوم ملقى، فقال له:

- انطق بحجتك إن كنت أمرت بها.

فأشار الوليد بسبابته اليمنى وهو متكئ على يساره، متجه بوجهه إليهم، فكلمهم، قال:

- ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ مريم: ٣٠ - ٣٣ .

قال عيسى هذا ثم عاد إلى طبيعته البشرية، فلم يتكلم بعدها حتى بلغ العمر الذي يتكلم فيه الصبيان.

وفي هذه العبارات الموجزة، جمع كل الدين، من عقيدة، ومناسك، وعبادات، ومعاملات، وأخلاقيات، ثم ذكره النبوة ثم العبادات الرئيسة، وهي الصلاة، والزكاة، ثم بر والدته، ثم طلب من الله السلام، وهو غاية الغايات، وذلك في مواطن ثلاثة هي أشد حالات الإنسان التي يحتاج فيها إلى السلام: لحظة الميلاد، وساعة الموت، ويوم البعث.

دُهش القوم لهذا القول الصادق البليغ الذي لا يصدر إلا عن نبي كريم، ثم نام عيسى عليه السلام، تاركا القوم في ذهول ما بعده ذهول تكاد تعجز عن احتماله العقول.

وانحنت مريم، فحملت الطفل، وضمته إلى صدرها، ثم انطلقت به، وهي تتبع ابن عمها يوسف النجار".

غمرتنا مشاعر البهجة لسماع حكاية مريم العذراء، فقلت:

- هذا ما حصل لمريم، لكن لم نعرف بقية قصة سيدنا عيسى عليه السلام؟

ردت جدتي برضا:

- "لا بأس، سأحكي لكم.. وهكذا صار إيمان عيسى وزهده ونبوته ومعجزاته حديث الناس، ومهوى أفئدتهم في كل مكان. وكان الكهنة والمراؤون والكتبة والفريسيون من اليهود يزدادون كرها لعيسى وحقدا عليه يوما بعد يوم، لأنه كشف عيوبهم ورياءهم، ولم يجدوا أمامهم إلا الكيد والمكر والخبث للإيقاع بعيسى، وأخيرا لجؤوا إلى الوشاية والغدر، فقرروا أن يغروا (بيلاطس) ملك الشام، فسعى هؤلاء اليهود الغادرون إلى بيلاطس، وراحوا يشحنون صدره بالعداوة والبغضاء لعيسى، فيتظاهرون بالتظلم

والشكوى وقالوا:

- إن عيسى يفسد الناس، ويفتن الرعية!

ويقول آخر منهم:

- إنه يفرق بين الابن وأبيه.. ويدعي أنه ابن الله مع أنه ابن زانية!

وقالوا أيضا:

- يا مولاي إن عيسى يقول أنه ملك اليهود، وهو يتآمر على الملك يا مولاي! ونحن لا نقر بملك سوى قيصر الروم!

فجن جنون بيلاطس فأرسل جنوده في الحال للقبض على المسيح، حتى ألقوا القبض عليه وجاؤوا به، مغلول اليدين، يدعونه دعا ويلهبون ظهره الشريف بالسياط، وقد وضعوا في رقبته صليبا ضخما ثقيلا من الخشب، فأجهد الصليب المسيح إجهادا، حتى صار يجر رجليه جرا من ثقل الصليب الذي يحمله على كتفه، وقد أحاط بعنقه، وكلما انهار المسيح تحت وطأة الصليب الثقيل، انهال الجنود عليه يؤازرهم اليهود ضربا بالسياط وجلدا بقسوة ووحشية، فيستجمع ما تبقى من قواه الواهنة، وينهض مرة أخرى، فلا تكاد رجلاه تحملانه مع صليبه الثقيل، كل هذا والكهنة يسيرون حول الجنود الطغاة ويحرضونهم ويزاحمون الجنود على النيل من عيسى؟ ويصفعونه على وجهه ويبصقون عليه، ويصرخون به!".

هتفت هنا من دون إرادة:

- كل هذا حدث لعيسى؟

قالت جدتي متأسفة:

- "بل وأكثر، كما قالوا له: (أنت كنت تحي الموتى، وتنتهر الشيطان، وتبرئ المجنون! أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل؟)، ثم يصرخون به: (هيا! خلص نفسك وأنقذها الآن، كما كنت تنقذ الآخرين بمعجزاتك وخوارقك!)".

امتلأت قلوبنا بمشاعر الحزن والألم، لم يعد بإمكاننا انتظار إكمال الحكاية، فقال أزهر بغرابة:

- وهذا حدث له؟ هل تم قتله فعلا؟

هنا ردت جدتي على سؤال أزهر:

- "فيما كان جسد عيسى في هذه الساعات العصيبة يتألم، ويؤذى أشد الأذى، وما كان أشد مكرهم وأخبثه، إذ أرادوا قتله غيلة لكن الله لم يتخل عن نبيه الكريم عيسى، جاء النداء الإلهي لعبده عيسى:

- ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ آل عمران: ٥٥ .

أي أن الله تعالى أدخله في البعد الزمني الآخر بحيث لا تراه العيون!

وراحوا يزعمون ويفترون فيقولون:

- ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ النساء: ١٥٧

فقد شبه لهم المقتول بأن ألقي عليه شبه المسيح، فلما دخلوا ليقتلوا المسيح وجدوا الشبيه فقتلوه وصلبوه، يظنونه المسيح.

كان الذين اختلفوا في شأن عيسى في شك من قتله عليه السلام، وهم اليهود قال بعضهم:

- قتلناه حقًّا، وتردد فيه آخرون، فلما ألقي شبهه على غيره فقتلوه قالوا:

- إن كان هذا المقتول هو عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟!

فاختلفوا فقال بعضهم:

- هو عيسى!

وقال بعضهم:

- ليس هو عيسى بل غيره!

وهكذا كان مكر الله في هذا المقام، حيث ألقى شَبَه عيسى برجل غيره، ورفع عيسى إليه حيا في مكان لا يعلمه إلا الله علاّم الغيوب، وذلك إلى أن يعود في آخر الزمان فيموت عليها.. وكان هذا الرجل الذي ألقى الله عليه شبه عيسى هو يهوذا الذي كان قد أتى إلى اليهود فقال لهم:

- ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح؟

فجعلوا له ثلاثين درهما، فأخذها ودلهم عليه، وحين دل يهوذا جنود الملك الظالم على مكان عيسى، فإن الله سبحانه أخفى سيدنا عيسى عن الأنظار وأدخله في عمق الزمن، ووقع تحت بصرهم رجل شديد الشبه به، ما لبثوا أن حسبوه المسيح، فانقضوا عليه وأخذوا بتلابيبه، فتملكته الحيرة والدهش والفزع، وعقد الخوف المريع لسانه عقدا، فلم يستطع الدفاع عن نفسه، وعجز عن إعلان حقيقة أمره، بل استسلم خائفا

مذعورا حتى صلبوه، ورفع الله سيدنا عيسى إليه فهو هناك إلى أن يأذن الله بعودته إلى الأرض، وكان عمره يوم رفع أربعا وثلاثين سنة.

بعد أن يأذن الله سبحانه سيعود عيسى عليه السلام إلى الأرض فيوحد أهل الأديان على دين الإسلام التوحيدي الخالص، ثم يموت، ويوم القيامة يبعث عيسى مع الخلائق جميعا".

كانت عقارب الساعة تمشي مسرعة، لكننا لم نحس بها ونحن ننظر إلى جدتي شكرا وعرفانا بما حدثتنا عن حكايتين في آن واحد عن مريم وابنها المسيح عيسى، وامتلأت قلوبنا بمشاعر لذيذة مثلما لو كنا قد حصلنا على كنز ثمين من تلك الحكايتين وما سبقهما من حكايات.

(ما بعد الحكايات)

مرت الأيام تباعا وانقضت شهور ونحن سمعنا أحلى وأجمل القصص التي ذكرت في القرآن الكريم، سمعناها من على لسان جدتي، كنت على يقين أنني أسعد الناس بعد معرفتي لتلك القصص، وصرت أتندر بالحديث بها بين زميلاتي الطالبات في الثانوية، كما استفدت منها في النشرات الجدارية، وكتابة مواضيع في درس التعبير.

فهمت وفهم إخواني أزهر وفارس وكذلك بنات عمي ذكرى وإيمان وابن عمي ذاكر صفحات خالدة سطرها الأنبياء والرسل، تلك الحكايات نقلتنا لمحة خاطفة من أبعاد رسالة التوحيد لله والإيمان به وترك عبادة الأصنام والأوثان، كان الأنبياء يحملون برسالاتهم الحكمة والنور اللذين أوحى بهما الله له. وأي نور!؟ نور فاق كل أنوار الدنيا!! لأنه أنار عقول وقلوب أناس ممن عاشوا القرون الأولى في الظلمات والجهل.